خالد محمد خالد

هذا الرسول





المقطم للنشر والتوزيع

القاهرة ـ مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215-7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

رقم الإيداع ١٩٩٦/٥٢١٨
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-02-5732-6

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

فى عام ١٩٨٥ للميلاد رغب المسئولون عن مجلة "الحرس الوطنى" السعودية فى أن أكتبُ لهم مقالاً دوريًا، واستجبتُ لرغبتهم الكريمة، وبدأت أكتبُ..

ولم يأخذنى تفكير طويل فى الموضوع الذى سيستأثر بكتابتى وبقلمى.

ذلك أنه كان ثمة موضوع ينادى فى إلحاح، وأنا أتمناه فى شوق.

كان الموضوع عبارة عن تقديم الإسلام - كما أفهمه - إلى عالمنا المعاصر، لعلّه يجد من أمره رشدًا، ولعلَّه حين يقرأ هذه الكلمات يجد فيها ما وجده آباؤه السالفون فى غيرها من نور هذا الدِّين وحكمته.

واخترتُ العنوان الذى أبثُّ فيه فكرتى تباعًا، وكان:

"الإسلام ينادى البشر"

وكتبت بضع مقالات وأنا بها سعيد، حتى أدركتنى - فجأة - بداية مرض طويل، فرحتُ أحاول واستنجد ببقايا صحتى وعافيتى، حتى جاءت الأيام التى كَلَّ فيها متنى، وتخلى عنى جهدى فاكتفيت بما كتبت للمجلة، ولجأت إلى الله الفتَّاح العليم، ألاَّ يحرمنى من إتمام نعمة هذا الكتاب، الذى تصورته وسيلة خلاص ناجعة لهذا العالم المتخبط والتعس.

وأخذ المرض لا أدرى أقول: "يُداعبنى" أم "يشاغبنى"، ولم يكن أمامى سوى الطمع فى فضل الله وانتظار فرجه القريب..

* * *

وما كان للشوق الحميم أن يتركنى للهدوء والتَّصبُّر؛ فقد كان تفكيرى كله فى هذا الكتاب، ورغائبى كلها فى أن أحمل قلمى مرة أخرى لأبث به ما يفتح الله من كلمات.

وجاء يوم يحمل إشراقة الأمل، وصحوة العمل، فمضيت مع الكتاب محاولاً قدر جهدى أن أمضى معه وفيه خطوات تشجعنى على عزيمة السير والمتابعة..

كانت رغبتى فى إتمامه مواكبة لإحساسى بقرب الرحيل..!

وكان همى كُلُّه أن أفرغ منه قبل أن أُدْعَى فأُجيبُ..

فرحت أغُذُّ الخُطَى، وأقتحم الصَعب، ممَّا جعل المرض يَشتدُّ ويقوى، ولم يعد يبدو لى إمكان تأليف الكتاب كلّه.

وقبل أن يقيِّد الكسل واليأس خطاى، أشار علىَّ ابنى محمد، ناشر هذا الكتاب، وصاحب دار المقطم للنشر والتوزيع، بأن أكتبه مُجزءًا، ويصل للقارئ فى أجزاء، كما حدث فى كتاب "رجال حول الرسول" ﷺ الذى أُخرج فى خمسة أجزاء، ثم لا يحمله القارئ اليوم إلاَّ مجلدًا واحدًا، ينتظم الأجزاء الخمسة.

وتذكرت الحكمة القائلة: "مالا يُدرك كُله لا يُترك كلُّه.."

ومضيت أستأنف كتابة ما رأيت أن يكون الجزء الأول من الكتاب وهو الذى يحمله القارئ بين يديه..

* * *

ولكن إلى أى شىء ينادى الإسلام البشر؟

هذا طبعًا موضوع الكتاب، فهو ينادى البشر:

- إلى هذا الرسول
- إلى هذا الكتاب "القرآن"
- إلى هذا الدين
- إلى هذه التجربة

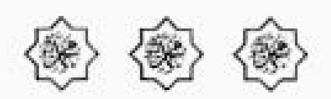
وفى هذه الصفحات يقدم الكتاب جُزءه الأول

"الإسلام ينادى البشر"

إلى

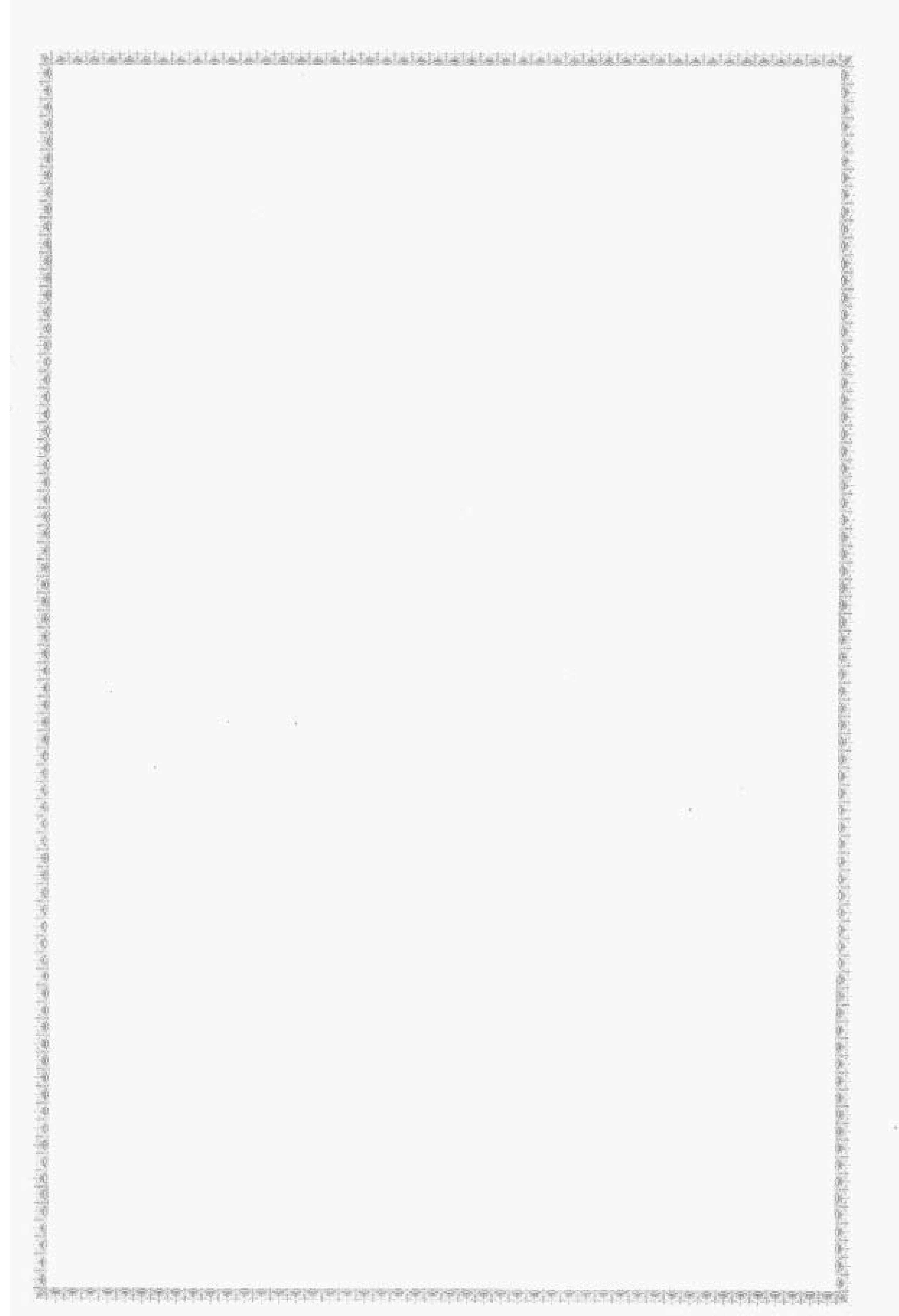
"هذا الرسول"

وقد بنيت على بعض ما كنت قد كتبته لمجلة "الحرس الوطنى" وتتبّعتُ بقية ما لم يكن قد نُشِرَ من قبل، فجاء ممثلاً لما أردت أن أقوله عن نداء الإسلام ودعوته البشر لِلُقيا هذا الرَّسُول العظيم ﷺ.



خالد محمد خالد

القاهــرة - ١٩٩٦



بين يدى الكتاب

فى رائعة النهار.. نهار يوم من أيام الحجّ الأكبر، نزل الوحْيُ على قلب الرسول ﷺ بآية الختام:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾

"سورة المائدة: ٣"

* * *

كانت الآية الكريمة تسجيلا للمشهد الختامى فى رحلة الوحى التى لبث "جبريلُها" الأمين عليه السلام، يغدو خلالها بين السماء والأرض على مدى ثلاثة وعشرين عاما، حاملا نور الإسلام إلى الأرض.. وكلمة الله إلى الناس.. ومنهج الحق والهُدى والخير إلى الحياة والأحياء..!!

والآية، وإن تَكُ تتَّجه بخطابها المباشر والقريب إلى عشرات الألوف من المسلمين الحافّين يومئذ حول رسولهم العظيم، وإلى مِثْلهم من المسلمين الجُدُد المبثوثين يومئذ فى مناحى الجزيرة الواسعة المتراحبة، إلا أنها مع ذلك كانت تُجاوز كل تخوم الزمان والمكان لتنادى بخطابها المضاء بنور الله جميع الناس العائشين على ظهر هذا الكوكب المعاصرين منهم يومذاك، والوافدين على الحياة من بعدهم على مدى الأجيال التى ستستقبلها الأرض، ما أذن الله للأرض أن تبقى وتدوم..!!

ذلك أنها تنزّلت على رسولٍ قدمته السماء للناس كافة.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

"سورة الأعراف: ١٥٨"

واختاره الله واصطفاه، ليكون رحمته المُهداة إلى البشرية كافَّة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

"سورة الأنبياء: ١٠٧"

كذلك أعلنت الآية الكريمة اكتمال الدين الواحد، والذى كان دائمًا واحدًا.. منذ نوح وإبراهيم، وحتى موسى وعيسى ومحمد.. عليهم وعلى إخوانهم الأنبياء والمرسلين أفضلُ الصلاة وأزكى السلام.

ذلك الدين الذى اشتُقَّ اسمُه من حقيقته..

فحقيقة الدين، إسلام القلب والوجه والسلوك لله رب العالمين.

وهكذا، وبهذه المثابة، كانت الأديان كلها بل قولوا كان الدين كله إسلاما، وكان الرسل كلهم مسلمين..!!

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

"سورة الحج:٧٨"

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾

"سورة المائدة: ٤٤"

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

"سورة آل عمران: ٦٧"

نزلت الآية إذن تسجِّل اكتمال الحلقة الأخيرة من دين الله، وتُنبئ البشر جميعا أن الموثق الذى بين الله وبينهم قد بلغ الآن منتهاه وشارف غايته!!

ومن اليوم ستُطوى الصحف، وتجف الأقلام، ويتوقف الوحى..

ويبدأ الذكاء الإنسانى والإرادة الإنسانية اللذان أحسن الدين تدريبهما عَبْر القرون.. يبدأان استئناف المسيرة فى نور الوحى المذخور بين صفحات الكتاب المنزَّل: من صحف إبراهيم وموسى.. إلى الإنجيل فالقرآن.

ومن ثمَّ، لم يكن الإعلام بختام النبوَّة والوحى حَجْرا على مستقبل الإنسان ـ بل كان إفساحا لهذا المستقبل، ودعوة للذكاء الإنسانىِّ كى يحمل مسئوليته الكاملة تجاه الإنسان ومصيره، وتجاه الحياة وإربائها. مهتدين بهدى الله، ونور الحقيقة، وإلهام المُعاصرة.. وهكذا يكون سيدنا "محمد" ﷺ وتكون رسالته رحمة للعالمين.

وكما لم يكن الإسلام حَجْرًا على ما بعده، فإنه كذلك لم يكن إلغاءً لما قبله، ولا افْتِياتا عليه.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾

"سورة الشورى: ١٣"

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

"سورة البقرة: ١٣٦"

لقد كان الإسلام التجربة الحيّة الثريّة المُهداة للبشرية فى عصرها الجديد، حاملة من التراث السابق كل جوهره الفريد.. ومُضيئة للزمن القادم كل طريقه المديد.. من أجل ذلك، لم يكن من حقه فحسب ـ بل كان من تبعاته قبْلا ـ أن ينادى البشر ـ جميع البشر ـ إلى نهجه وتجربته، وهُداه.. وإلى رسوله، وقرآنه وسناه..!!

* * *

ولقد تحقَّق وعدُ الله لهذا الدين بنشر رياحه ورفع لوائه، وحفظ كتابه..!!

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾

"سورة الحجر: ٩"

وهكذا عاش الإسلام ألف عام وأربعمائة عام، تعرَّض خلالها لسيول طامية وجارفة من المناورات والمؤامرات والمكائد والحروب، واستودع ثرى الأرض فى أكثر جنباتها وأقطارها أعدادًا مباركة وهائلة من شهدائه.. ثم لا يزداد إلا تألُّقًا وتفوقًا ونماءً.

لم تُغادر كلمةٌ من قرآنه مكانها فى مئات الملايين من المصاحف رغم كل محاولات التحريف والبَغْىِ..!!

ولم تَغِبْ شعاعة واحدة من شمس عقائده ومبادئه. رغم كل محاولات الإطفاء والبهت..!!

بل ولَّوا مُدبرين أمام زحفه، أولئك الشانئون والضاغنون عليه.. ولوا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ويجْتَرُّون خيبة الأمل ومرارة الإفلاس..!!

أجل.. على الرغم من كل ما اقترفته قوى الشرِّ والظلام ضد الإسلام فى قديم الزمان وحديثه، بقى لروحه شبابها النضير، ولمبادئه توهُّجها. وبقىَ كِيانه الداخلىُّ كله متفوِّقًا على كلِّ محاولات الكيد والإحباط..!! وكم كانت رحمة الله واسعة ـ حتى بخصومه ـ حين لم ينهزم هذا الدين العظيم أمام مكائدهم الجائحة.

فبقى نورُه وبقيت حضارته، ليأخذوا بأيدى شعوبهم وبلادهم من وهدة الظلام، والانحطاط، والهمجية إلى مدنية ما كانوا ببالغيها لولا الإسلام ونوره.. ولولا الإسلام وحضارته..!!

ألا إنه إذا كان هذا الدين حقا، لا وهْمًا.

وإنه لكذلك..

وإذا كان ضرورة، لا ظاهرة.

وإنه لكذلك..

وإذا كان دوره فى هداية البشرية وقيادتها لم ينتهِ، ولن ينتهيَ.

أقول: إذا كان ذلك كذلك، فإن إصغاء البشر لندائه إياهم وهُتافه بينهم، يصير من أقدس تبعات رُشدهم ومسئوليات وجودهم.. ليس لأنه يتجاهل ما سبقه من مراحل الدين، ولا من سبقه من المرسلين.. بل لأنه ـ دون بقية الأديان ـ يمثل الكلمة الخاتمة والجامعة لتوجيهات السماء، ويمثل الخلاصة المركزة للتجربة الدينية التى بدأت مع أول نبى ورسول إلى أن أتم الله نوره ونورها مع آخر نبيّ ورسول.

فالإسلام بحكم كونه خاتم الأديان قد استبقى منها، واصطحب معها كل جوهرها الفريد، ومضمونها العميم.. كما أنه بهذه المثابة يؤكد جميع الرسالات، وجميع المرسلين فى الإيمان بها وبهم.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

"سورة البقرة:٢٨٥"

فكل إيمان لدَى الإسلام مُهدر وخِدَاج، ما لم يكن إيمانًا بكافة الرسالات، وبجميع المرسلين..

والذين يؤمنون ببعض، ويكفرُون ببعض، لا يُقيم الإسلام لإيمانهم وزنًا، لأنهم بهذا التبعيض وبهذه التجزئة يسلبون الدين أهم خصائصه المتمثلة فى وحدته العضوية والموضوعية، ويحرمون الحقيقة الدينية من أقوى براهين وجودها وصدقها.

ذلك أن الإسلام هو الحقيقة المشتركة فى كل برهان، بل الحقيقة المكوِّنة لكل يقين بوجود الوحى.. ووجود الدين.. ووجود الأنبياء والمرسلين..!!

وبمشيئة الله وعونه سنلتقى بتوضيح أكثر لهذه النقطة خلال ما هو آتٍ من صفحات البحث ومُنتجعاته..

هناك، سنرى رأى العين، ونعلم علم اليقين أن الإسلام إذ ينادى البشر إليه، إنما يناديهم إلى الحقيقة الدينية ممثلة فى كل رسالاتها، وكتبها، ومرسليها، بيضاء من غير سوء، بعد أن ينفى عنها تحريف المُبطلين، وضلالة المضلِّين.

كما سنعلم علم اليقين أنه حين يُنادى البشر إليه.. لاسيما فى عصرنا الماثل.. فإنما يناديهم ويدعوهم إلى خلاص أكيد من شِقْوة الضَّياع الذى يفتح أشداق أغوراه الفاغرة ليبتلع فى غياهبها وظلماتها كل مالا حياة للإنسان بدونه من روُحٍ وضمير.. من إرادة وفكر.. ومن اقتدار على تحرير وجوده ومُعانقة مصيره..!!

أجل.. إن الإسلام بوصفه كلمة الله الخاتمة فى مجال الدين.. وبوصفه وصيَّة الله المُحكمة والبالغة فى مجال الحياة.. لقادر على أن يمنح العالم المظلم نوره.. ويهب هذا العالم الحائر المُلتاث هُداه.

هو قادر على أن يُزيح من طريق الكافة من الناس، والجموع الهادرة من

البشر.. وأولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ.. أولئك الذين يُمدُّونهم فى الغَىّ.. أولئك الذين كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وارْتابتْ قلوبهم، فهم فى ريبهم يتردَّدون..!!

الإسلام قادر اليوم، وغدًا، وبعد غد، وأبدًا، أن يُجلى عن أرض المسيرة الإنسانية "ديناصورات" البشر، ووحوش الغابة الآبقة، كما استطاع ذلك فى أمسه القريب والبعيد بنور دعوته، وصدق حجته، وذكاء منطقه، وروعة ثباته، وقوة إصراره، وجلال تضحياته..!!

فيا من تظنون أن قد بعُدت عليكم الشُقة، أصغوا للإسلام فى ندائه، واقتربوا من بهائه، وانْهلوا من عطائه.

وإذا سألتم: إلام يدعو الإسلام؟؟ وإلى ماذا ينادى البشر؟؟

أجيبكم: إنه يناديهم:

***إلى رسوله..**

*** وإلى كتابه..**

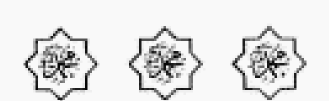
*** وإلى نهجه..**

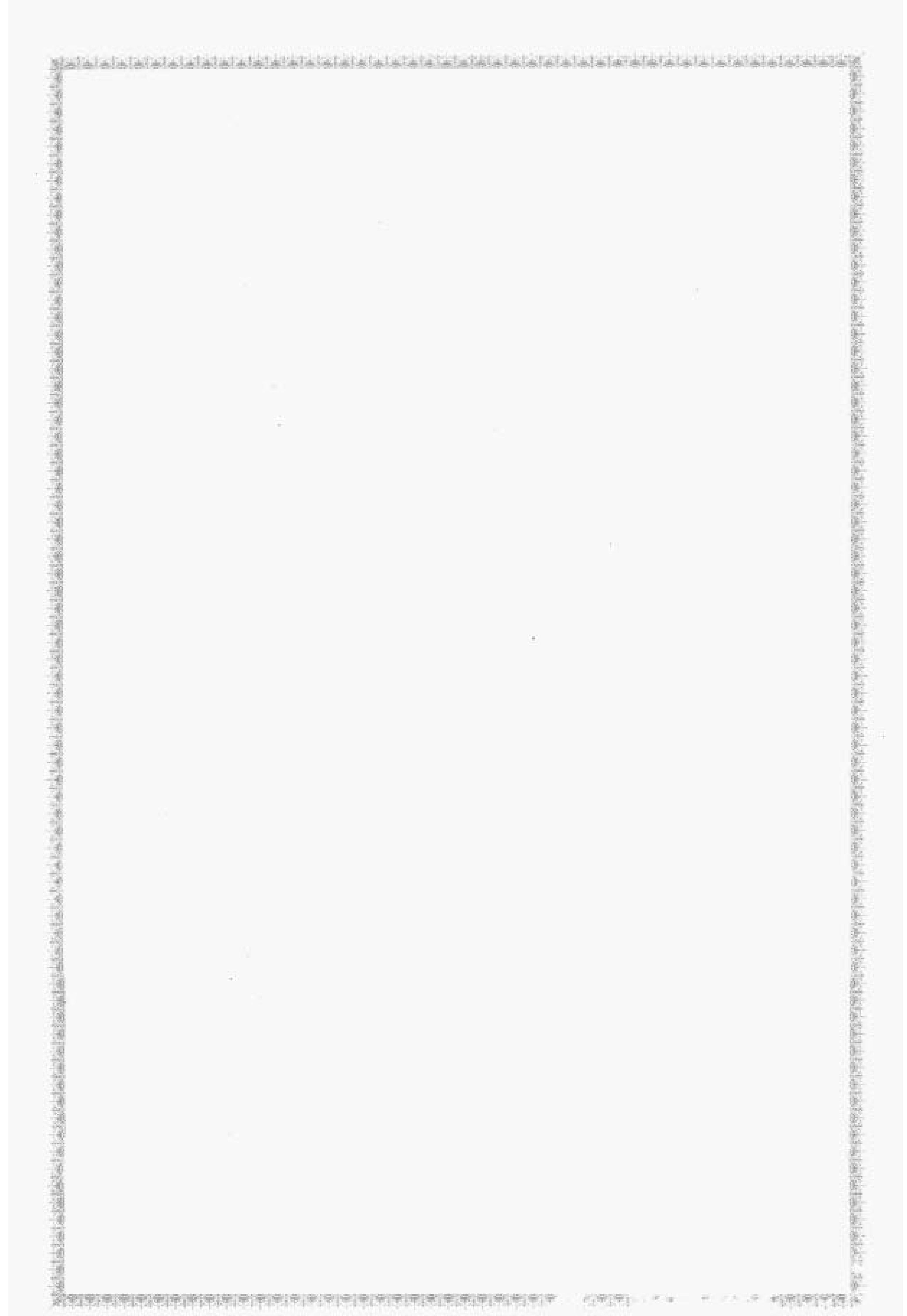
*** وإلى تجربته..**

أجل.. الرسول، الكتاب، والمنهج، والتجربة..

مِنْ هؤلاء يتكون الإسلام، وبهم تتحدَّد معا خصائص شخصيته المضيئة والباهرة..

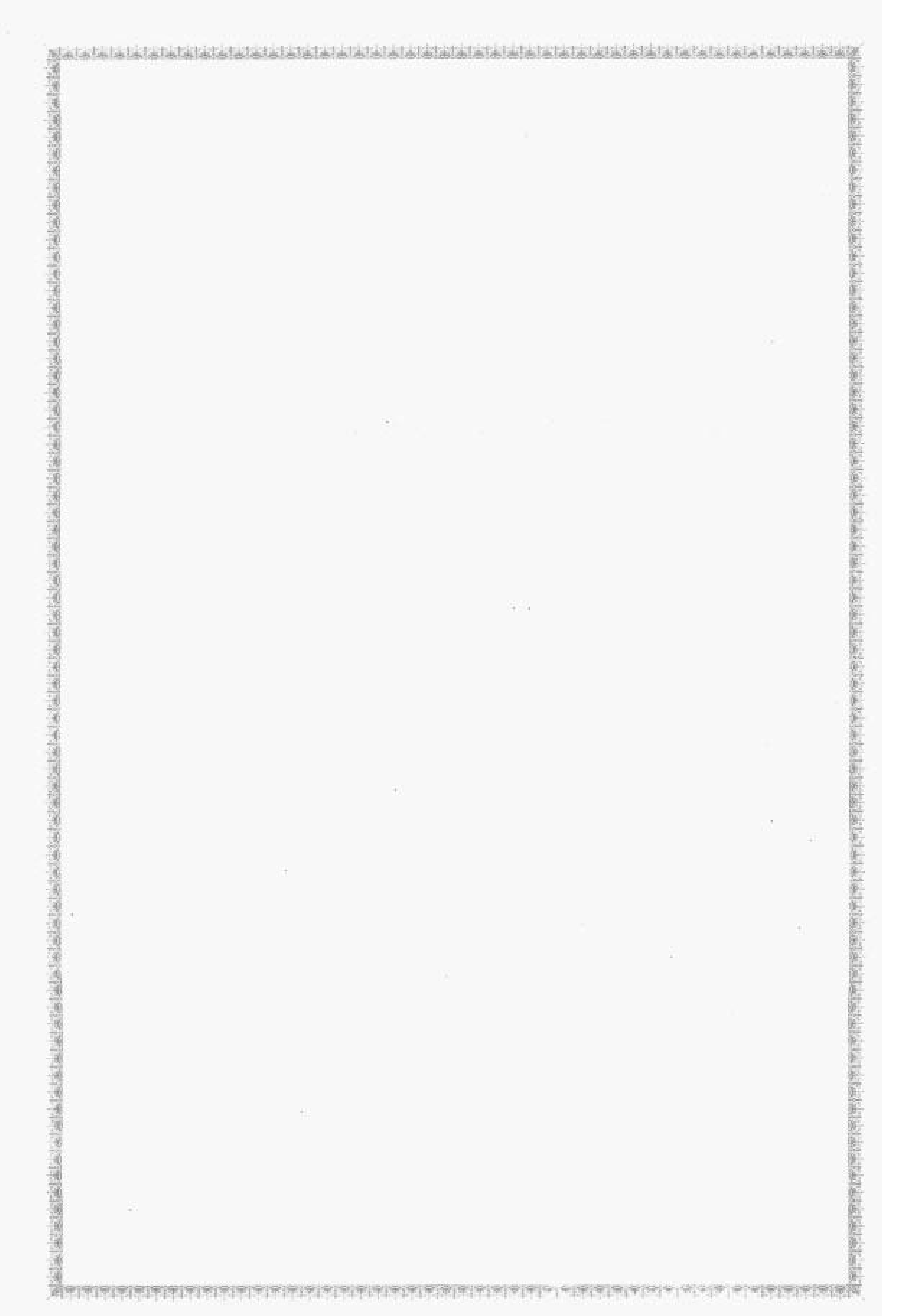
وإليهم ينادى البشر فى حدبٍ عظيم، وشوق حميمٍ..





الفصل الأول





شخصية الداعى، هى الدليل الحق، بل الدليل الوحيد على شخصية الدعوة. وحقيقة المبشِّر بفكرة، والهاتف بعقيدة، هى حقيقة الفكرة نفسها، والعقيدة ذاتها.

والمتاجرون بالمبادئ، مهما أوتوا من حذق فى التنكُّر ومهارة فى التخفى، لا يستطيعون أن يخدعوا الناس عن دخائلهم وما يمكرون.. وهم آخر المطاف عاجزون تمامًا عن أن يُحوّلوا البهتان إلى صدق، والزَّيف إلى حقيقة!! وكما قال "كارليل" فى كتابه "الأبطال" مُوجِّها كلماته وسُخرياته لزعماء "الكنيسة" فى الغرب:

"أتقولون: إنَّ "محمدًا" كاذب..؟؟!!!!

إن الكذاب لا يستطيع أن يبنى بيتًا من الطوب،

فكيف برجل بنى عالمًا من المبادئ، والأرواح، والقلوب"..؟!

أجل - إن الكذّاب لا يستطيع أن يبنى بيتًا من الطوب، لأننا ببساطة سنقول له: أرنا هذا البيت.. فتهوى أكاذيبه، ويُولى الدُّبر..!!

ومبادئ التغيير والإصلاح، لا سيَّما الكبير منها والجليل، تُشبه أن تكون بناء من زُجاج، تكشف وتفضح كل ما يدور داخلها، ووفق ذلك تكشف أنفس الذين يهتفون بها، وتُعرّيهم من كل أردية الخداع، وأقنعة التمويه!!

والصادقون بما وهبهم الله من هُدى قويم، وبما معهم من فطرة نقيَّة تقيَّة بيضاء من غير سوء.. هؤلاء يمشى نورهم بين أيديهم.. ولصدقهم إشراقٌ وضياء!!

* * *

من أجل هذا، كان أكثر أعداء الإسلام غباء، وأوفاهم نصيبًا من خيبة الأمل، وسخرية الحقيقة، أولئك الذين حاولوا ـ يائسين ـ النيل من شخصية الرسول ﷺ.. وحاولوا ـ يائسين ـ أن يجعلوا عظمته الباهرة، وخصاله العظيمة، والطَّاهرة موضع هَمس، أو مدعاة تساؤل.. ناهيك عن اتخاذهم إياها موضوع رفض، أو ارتياب..!! وذلك حين كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وارْتابت قلوبُهم، فهم فى ريبهم يترددون!!!

والذين أرْكِسُوا بما كسبوا من الغابرين أخفقوا إخفاقًا ما بعده إخفاق، وانتهى بهم طريقهم الزَّلق إلى الهُوَّة الفاغرة، وصدّهم عن النيل من شخصيَّة "الرسول" ﷺ ما كان لهذه الشخصية من عظمة أصلها ثابت وفرعُها فى السماء!!!

وخَلَف من بعدهم خلف، ثم خلف، ثم أخلاف.. شهِدَتْهُم عصور تِلْوَ عصور، ماضين على طريق أسلافهم رافعين ـ فى بلاهة وخيبة وتطاول ـ نزوة التحدى، وسفاهة الانتقاص.. فما كانوا أكثر من سابقيهم توفيقًا، ولا أقلَّ خُذلانًا وإخفاقًا..!!

ولعلَّ تاريخ البشرية لم يشهد شخصية حيَّرت خصومها وشانئيها وردَّتهم على أعقابهم صاغرين كما فعلت ـ بأعدائها وخُصومها ـ شخصيَّة هذا الرسول العظيم..!!

ذلك أنها "شخصية" مُضاءة، يُرى باطنها من ظاهرها. مفتوحة، ليس حولها أسوار ولا أستار.. واضحة ومجلوة، كانبلاج الفجر وضوء النهار..!!

ولعلَّ أعظم ما تطالعنا به هذه الشخصية، أنه ليس بين مبادئ صاحبها وسُلوكه فر اغ يتسع لمرور شعرة دقيقة، أو خيط رقيق!! وأنه لم يبتعد طوال سنى عمره عن مبادئه ولا بقيد أُنملة..!!

وكم كانت صادقةً أمُّ المؤمنين "عائشة" رضى الله عنها حين سُئلت عن أخلاقياته فقالت "كان خُلُقه القرآن"..!!

ونفس الموقف الذى اتخذه منه شانئوه، اتخذوه تجاه القرآن وتجاه الإسلام.. فما ازدادوا إلا صَغارًا، وخَسارًا..

وبقى "الرسول" ﷺ و "القرآن" و"الإسلام" منارًا للسماء فى الأرض.. ونبعًا ـ لا يغيض عذبُه وفُراته.. يفيض بالهدى، والخير، والحقّ.. وشرفًا تزكو به أقدار الإنسان وأقدار الحياة..

والسماء حين قدّمت للأرض وناسها خاتم الأنبياء وأجلّ المرسلين، لم تقدّمه فى لُفافات من غموض، ولا فى طيّات من الأحاجى والألغاز.. بل قدّمَته فى نور كتابه، وشفافية إهابه.. شخصية مقروءة، مثل كتاب مفتوح ومُتاح.. صيغت كلماته المسطورة بحروف كبار..!!

فمن طفولته، إلى شبابه، إلى رجولته، إلى مبعثه، إلى مماته، وأنباء حياته المباركة منظورة بألف عين.. مسموعة بألف أذن.. يتعقّبها الأعداء والأصدقاء..!!

والقرآن العظيم حين قدّم حامله، ومتلقيه، ومُبلغه، ورسوله، لم يُدّثّره بقداسة زاجرة، تجعل الناس يقفون أمامها رُكّعًا، وهيابين..!! بل قدّمه بوصفه "بشرًا" من البشر.. وواحدًا بين الجميع.. وإن هيّأه تفوُّقه لأن يكون واحدًا فوق الجميع!!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

هكذاعلّمه القرآن أن يكون، وأن يقول.. ولقد كان، ولقد قال.. هذه الشخصية المقروءة والمسموعة.. المتواضعة والرفيعة.. لم يعْزُب عن صاحبها

العظيم مثقال ذرة من الوعى بهذه الحقيقة، ولا من اليقين بأن "الصدق" هو الذى سيضحك كثيرًا، لأنه الذى يضحك أخيرًا..!!

وإنَّ للصدق ومضات خاطفةُ يفجأ بها الذين عَموا، فإذا هم مبصرون. والذين صمُّوا، فإذا هم يسمعون..!!

وإنَّ للحقيقة "عبيرًا" يطرد كل ريح مُنتن وخبيث، ولقد كان صِدْقُ "محمدٍ" ﷺ وعبيرُ "محمدٍ" ﷺ يدُلان عليه.. ويقودان إليه..

فأمام "نجاشىِّ" الحبشة، وقف واحد من أتباعه والمؤمنين به يتحدث عنه.

وأمام "هرقل" الشام، وقف واحد مُمَثِّلا لكل أحقاد قريش، وكلِّ ضِغنها ولؤمها.

فهل اختلف الحديثان والمتحدِّثان فى الشهادة له؟؟ والإطراء الحقِّ لسموِّه ونُبله وعظمته..؟؟

أبدًا ـ لم يختلفا.. والتقت شهادة مؤمن الاثنين ومُشرِكهما على أمر قد قُدر.. وعلى حقّ استبان وظهر..

وأبدًا، لم يختلفا، لأنَّ أنفَة المشرك عزَفَت به عن أن يُعهد عليه الكذب!! وجعلته يعترف ـ اضطرارًا وكرها ـ بما كان "محمد الأمين" يُعرف به من نضارة الخُلُق، واستقامة النهج، وجلال بواعثه، وصدق نيَّاته..!!

كان الذى تحدَّث أمام النجاشىِّ ـ جعفر بن أبى طالب ـ ابن عم الرسول.. وأحد الذين باكروا إلى الإسلام، وبيعة "الرسول" ﷺ وقف يقول:

"أيها الملك..

• لقد كُنَّا قومًا أهل جاهليَّة، نعبد الأصنام..

ونأكل الميتة..

ونأتى الفواحش.. ونقطع الأرحام.. ونُسىء الجوار..

ويأكل القوى منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولا منا.. نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه.. فدعانا إلى الله، لنعبده ونُوحِّده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.. وأمرنا بصدق الحديث.. وأداء الأمانة.. وصلة الرحم.. وحسن الجوار.. والكفِّ عن المحارم والدماء..!!

ونهانا عن الفواحش.. وقول الزُّور.. وأكل مال اليتيم.. وقذْف المُحصنات.. فصدقناه وآمنَّا به.."!!

هكذا كان حديث مسلم عن رسوله.. قالها في أمانة راشدة، وصدق أبلج وعظيم..

أما عن المتحدث عن "الرسول" ﷺ أمام هرقل فكان "أبا سفيان" زعيم قريش يومئذ، وكبير المشركين.. وإن أي حديث عن الرسول ﷺ، ليظل ناقصا وخداجا، ما لم ينتظم هذا الحوار الذكي والصادق، بين هرقل وأبى سفيان..

بدأ هرقل الحوار بسؤال أبي سفيان.. عن النبي عليه السلام:

هرقل: ما حسبه فيكم ؟؟

أبو سفيان: هو فينا ذو حسب..

هرقل: هل كان من آبائه ملك ؟؟

أبو سفيان: لا..

هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟؟

أبو سفيان: لا..

هرقل: هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم..

هرقل: أيزيدون أم ينقصون ؟؟

أبو سفيان: بل يزيدون

هرقل: هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه، سخطة له؟؟

أبو سفيان: لا..

هرقل: هل قاتلتموه؟؟

أبو سفيان: نعم..

هرقل: كيف كان قتالكم إيَّاه؟؟

أبو سفيان: تكون الحرب بيننا وبينه سِجَالاً.. يُصيبُ منّا، نُصيب منه..

هرقل: فهل يغدر؟؟

أبو سفيان: لا..

هرقل: بم يأمُركم؟؟

أبو سفيان: بالصلاة، والزكاة، والصِّلة، والعفاف..

هاتان شهادتان لعدو، وصديق.. لمشرك يحاربه، ولمسلم يصدِّقه.. فهل اختلفتا فى الهُتاف برفعة مناقبه، وسُموِّ مبادئه..؟!

ولقد أعطى "هرقل" فى ذلك اليوم البعيد مثلاً نبيلاً لمنهج الرجل الحصيف المنصف فى تمحيص الحقيقة، واستطلاع الرأى.

وعلى الرغم من أن لغط حاشيته، ومخافة التمرُّد من شعبه، قد صرفاه عن اعتناق الإسلام، فإن الطريقة والحوار اللذين عالج بهما القضية المُثارة، قد أبانا جَدارة "الرسول" عليه الصلاة والسلام بالتصديق والاتباع.. بالتوقير والإكبار.. حتى وَفْق مقاييس الحياد والتردد.. ما دام حيادًا يتوخى النزاهة، وترددًا ينتظر

الشجاعة، أو ينتظر البرهان..!!

وإنا لنستبينُ ذلك من الكلمات الناصعة والبارعة التى عقَّب بها "هِرَقْلُ" على هذا الحوار.. فقد قال لتَرْجُمانه:

"قل له - يعنى أبا سفيان - لقد سألتك عن حسبه فيكم، فزعمْتَ أنه فيكم ذو حسب.

وكذلك الرُسل تُبعث فى أحساب قومها!!

وسألتك: هل كان فى آبائه ملك؟.. فزعمت أن.. لا فقُلتُ: لو كان فى آبائه مَلِك، لكان رجلا يطلب مُلك آبائه!!

وسألتك عن أتباعه أضعفاء القوم أم أشرافهم؟ فقلتَ: بل ضعفاؤهم.. وكذلك أتباع الرسل!!

وسألتك: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟؟ فزعمتَ أن.. لا.. فعرفْتُ أنَّه لم يكُنْ لَيَدَع الكذب على الناس، ويكذب على الله!!

وسألتك: هل يرتدُ أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه، سخطة له ؟ فزعمت أن.. لا...

وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب!!

وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون.. وكذلك الإيمان حتى يتم!!

وسألتك هل قاتلتموه..؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، وأن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبلى.. ثم تكون لهم العاقبة!!

وسألتك: هل يغدر ؟ فزعمت أنه لا يغدر.. كذلك الرسل لا يغدرون" !!

ثم يختتم "هرقل" حديثه البليغ قائلا لأبى سفيان::

"إن يك ما تقول حقا، فإنه نبي.. ولقد كنت أعلم أنه خارج.. ولم أكن أظنه منكم.. ولو أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه.. ولو كنت عنده، لغسلت عن قدميه.."!!

* * *

هكذا كان عبيره.. وكان نوره.. يهديان إليه، ويدلان عليه!! حتى أولئك الذين لم يروه ولم يجلسوا إليه.. بل كان مصدرهم في معرفتهم به مجرد السماع عنه.. وممن؟؟

من أكثر خصومه لددا، وأقساهم قلبا، وأعنفهم حربا..!

إن "هرقل" حين تمنى أن ينال شرف لقاء سيدنا "محمد" عليه الصلاة والسلام، وحين ود لو ينال غسل قدميه الشريفتين، لم يكن قد شاهده، ولا عايشه، بل ولا رآه.. فكيف لو كان رآه ؟؟!

إن كل ما عرفه به، بضع كلمات سمعها عنه.. وممن؟؟ من ضاغن، وشانئ، وعدو، يقتلع الحقيقة من تحت أضراسه اقتلاعا.. خشية أن يعرف عنه الكذب إذا هو تجانف أو زاغ..!!

فكيف تفتح عقل "هرقل" وقلبه لهذا الذي سمع..؟؟ وكيف تضمَّخت روحه بعطر ليس معه قارورته.. عطر قادم من بعيد..؟؟!!

وكيف انثنى صدره على ذلك الشوق الحميم إلى لقاء "الرسول "ﷺ وتلك الرغبة الحثيثة فى أن يغسل قدميه..؟!!

وكيف كاد يُسْلم لولا تصايُح رجال حاشيته، وأباطرة كنيسته..؟!

لا أحسب أن ثمة سببًا يقدِّم لنا جوابًا شافيًا، ويفسِّر لنا هذه الواقعة وهذه الظاهرة سوى ما كانت عليه شخصية الرسول ﷺ، وشخصية دعوته من قوَّة الصدق.. وقوة الجذب.. وقوة التأثير..!!

أمَّا قوَّة "الصدق" فلأنه كان رسولاً حقًا، لا رسولاً مُنتحلاً.. وكانت هناك نُبوءات صادقة، وإرهاصات ناطقة بحتمية مجيئه، وقُرب ظهوره.. نُبوءات كان يعرفها العالمون والمخلصون من أهل الكتاب ـ وإن استَغْشى عليها ثيابهم قوم آخرون من أهل الكتاب وأيضًا انحدروا إلى كتمانها، وتردَّوا فى إنكارها!!!

وأما قوَّتا الجذب والتأثير، فلأنَّ أولئك العِظام الذين يختارهم الله لحمل رسالته، ويصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه ـ يُودع شخصياتهم من الفَيْض ومن الإيحاء ما يُدنى منهم القلوب، ويُطوِّع لهم رغائب الآخرين ومَوَدَّتهم.. حتى إن تأثيرهم وهم غائبون، يكاد ينافس تأثيرهم وهم شهود وحاضرون..!!!

"فالمسيح" عليه السلام، رآه والتقى به فى حياته عشرات من الناس أو مئات ـ منهم من آمن به، ومنهم من كفر. ولكنَّه منذ أن رحل عن دنيا الناس، ومئات الملايين تدخل مجال جاذبيَّته طائعة، راغبة، مشتاقة..

"والرسول" ﷺ غادر الدنيا إلى الرفيق الأعلى تاركًا عشرات الألوف من الذين رأوه، وعاصروه، وآمنوا به، واتَّبعوه.. لكنَّه منذ رحيله، ومئات الملايين كذلك تدخل مجال جاذبيته، وتأنسُ بدينه، وتُسارع إليه طائعة، راغبة، مشتاقة..!!

* * *

إنَّ قوَّة الصدق، وعُرام الطاقة الكامنة فيها قوَّة الجذب والتأثير لرسالة "الرسول" ﷺ و "شخصيته" لم تَكُفَّا ـ عبر الأجيال ـ عن تقديم النموذج الذى قدمناه منذ أربعة عشر قرنًا من خلال الحوار المُشبِعِ بين "هرقل" و "أبى سفيان"!!

فكثير من الذين عاشوا على دين غير دين "محمد" ﷺ، رفضوا أن يخونوا الحقيقة، ويُزيفوا قول الحقِّ فيه.. ورفضوا أن يُغالطوا أنفسهم، ويكتموا الحقَّ وهم يعلمون.. فمضوا ـ صادقين وشجعانًا ـ يصدَعُون بما عَرفوه عن عظمته، وصدقه، وإخلاصه.. ويصدَحون ـ فى كلمة فرح مغتبطة ـ بما بهرهم من شخصيته المُضاءة والمضيئة.. لنقرأ مثلا لواحد من هؤلاء الذين أنجبهم عصرنا الحديث ـ ذلك هو "لامارتين"..

إنَّه ـ كما نعلم ـ لا يُعرَف عنه إيمان بالإسلام ولا برسوله ولا بقرآنه ـ ومع هذا فقد آمن بما احتشدت به شخصية "الرسول" ﷺ من صدق، وبرٍّ، وسمُوٍّ، ونُبل، ورحمة، وهُدى، وأمانة، وعفة، وذكاء، وخُلق، ومن اقتدار هائل على تحدِّى الباطل وكنس الضلال.. ومن إيمان عميق بالله، وتبتُّل للدعوة، وولاء مُفيض لقيم الحق، والعدل، والخير، والفضيلة، والجمال..!!

فصوَّر ذلك كلَّه فى كلمات أعطت التعبير النهائىَّ لما يستطيع إنسان أن يُبدى من حبّ، وتوقير، وإجلال.. ها هو ذا يتحدث ويقول:

"لم يظهر ـ قطُّ ـ رجل مثل "محمد" ﷺ عَقَدَ نيَّتهُ حول غاية أعظم سُموًّا.. غاية فوق قدرة البشر.. تستهدف هدم الخرافات القائمة بين الخلق والخالق.. وإعادة الربِّ إلى الإنسان، والإنسان إلى الرَّبِّ..

وإصلاح المبدأ العقلىِّ السليم تجاه الألوهية فى خواء آلهة الوثنية الغلاظ المشوَّهين..!!

لم يظهر قطُّ رجل مثله قام فى أقل وقت بثورة بالغة الشمول، والاستمرار. فنشر الإسلام فى أقسام جزيرة العرب الثلاثة، وفتح لوحدانية الله بلاد فارس،

وخُراسان، وما وراء النهرين، والهند، والشام، ومصر، وجميع القارة المعروفة بأفريقيا الشمالية، وكثيرًا من جزر البحر المتوسط، وأسبانيا، وقسمًا من بلاد المغول..!!

وإذا كان عِظَم المقصد، وضآلة الوسائل، واتساع النتائج مقاييس ثلاثة لعبقرية الرجل.. فمن ذا الذى يجرؤ على تشبيه أحد من عظماء العصر الحديث بـ "محمد" ﷺ..؟!

إن أبعدهم صيتًا لم يصنع غير هزِّ السلاح، وزعزعة الدُّول.. ثمَّ يُقيموا - إذا كانوا قد أقاموا شيئًا - سوى سلطات ماديَّة مُنهارة..!!!

صحيح أن "محمدًا" ﷺ هزَّ سلاحًا، وأزاح شرائع، وزعزع دُولا وأممًا وأباطرة..

بَيْدَ أنَّه فوق ذلك أزاح أفكارًا، ومعتقدات، وغيَّر نفوسًا، وأقام على كتاب - أصبح كل حرف منه شريعة - جنسية وروحية لأمم شتى..!!

ثم هو قد طبع هذه الجنسيَّة الإسلامية بسمَةِ المقْتِ للآلهة الباطلة، والحب لله الواحد الأحد..!!

فيلسوف، وخطيب.. رسول، ومُشرِّع، محارب، وفاتح لأفكار، ومصلح لعقائد.. مُحْيٍ لعبادة بغير صُور ولا تماثيل..!!

مؤسس لعشرين دولة دنيويَّة، ومُنشئ لعالم من الروح..!!

ذلكم، هو "محمد" ﷺ..

فمن ذلك الرجل الذى يمكن أن يكون أعظم منه ،

بكل المقاييس التى تُقاس بها عظمة الإنسان..؟!!

ما الذى جعل هذا الشاعر الفرنسى الكبير- من شعراء القرن التاسع عشر - يُرصِّع كتابه "السَّفر إلى الشرق" بهذه الكلمات الوِضاء الحِسان، عن رسولٍ لم يُعرف عنه إيمان به، ولم تَصُدَّه مسيحيته عن الاعتراف بعظمته، وروعة أيامه..؟!

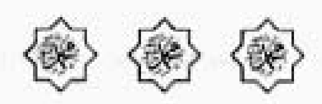
ما الذى هاج أشواقه إلى العظمة الإنسانية حتى رآها مكتملة ومزدهرة فى شخصيَّة رسولنا ﷺ، وفى أخلاقه، وفى دينه، فراح يحيِّيه تحيَّة مُولَهٍ جذلان..؟!

عليه صلاة الله وسلامه، وله تحياته وبركاته.. فهو رحمة الله للعالمين.

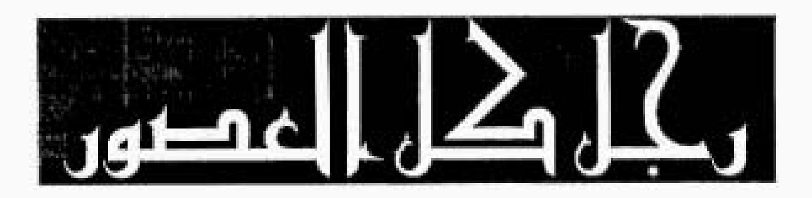
ولنقل مع "لامارتين":

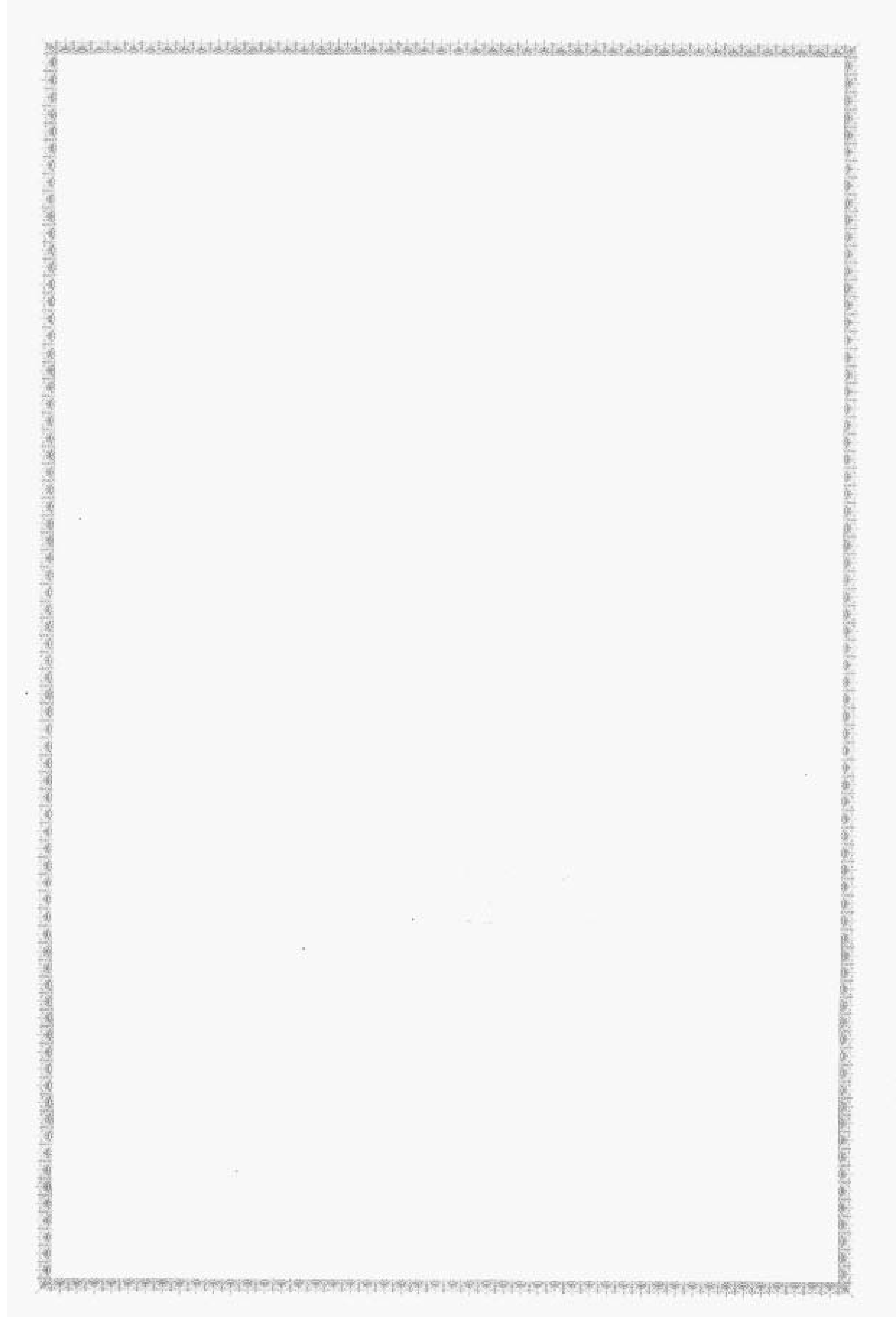
مَنْ ذلك الرجل الذى يمكن أن يكون أعظم "منك"

بكل المقاييس التى تُقاس بها عظمة الإنسان..!!



الفصل الثانى





إنَّ هذا الذى تلوناه، وطالعناه من كلمات الشاعر والمفكّر الفرنسىّ الكبير "لامارتين" لم يكن وحيدًا بين الآراء والاعترافات التى أدلى بها فى إعجاب وافتتان وصدق رجالٌ كِثار، وكبار، من الذين أمضَوا حياتهم، وقضوا نحبهم، وهم خارج دائرة الإسلام.

بَيْدَ أنّ ثقافتهم واطِّلاعهم الوسيع المتراحب.. ثم احترامهم لأنفسهم ولتفكيرهم.. كل هذا جعلهم ينحنون أمام عظمة الرسول ﷺ ونقائه وتقاه !!

ثم لم يستطيعوا صبرا على اختزان إعجابهم، ولا على كتمان الولاء الذي أفعم به وجدانهم وتفكيرهم..

ولاءُ مَن، ولمن..؟؟

ولاء أناسٍ منصفينَ يدينون بغير دين محمد ﷺ.. أذهلهم منه خُلُقه، وطُهره، وروعة ثباته، وبطولة تضحياته، وصدقه مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس.. ثم احترامه الوثيق والعميق للعدل، وللحرية، وللحق، وللخير، ولحقوق الإنسان.

* * *

ولم يكن الشاعر فى "لامارتين" هو الذى صاغ إعجابه المغتبط، وشهادته المتألّقة ـ فحسب ـ بل كان عقله يسابق وجدانه نحو هذا الإعجاب، وهذا الانبهار.

وكأىٍّ من عالم غربىٍّ..يعتمد فى تكوين أحكامه على المنطق، والتحليل، والمناقشة، والمقارنة.. يشكُّ ليعرف..ويتوقّف قبل أن يحكم.. استطاع فى ضياء إخلاصه وصِدْقه، ونزاهة عقله وفكره ـ أن يصل إلى نفس النتيجة التى تؤكد ندرة الوجود المحمدىّ بين كل وجود وكل موجود..

هذا.. مثلا.. "روم لاندو" الذى عمل أستاذًا للدراسات الإسلامية والشمال ـ أفريقية، فى جامعة المحيط الهادى بكاليفورنيا.. يقول فى كتابه: "الإسلام والعرب":

"كان "محمد" ﷺ تقيًا بالفطرة. وكان من غير ريب مهيَأ لحمل رسالة الإصلاح التى تلقّاها فى رُؤاه.. وكان يملك إيمانًا لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزمًا راسخًا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التى كانت سائدة بين الوثنيِّين العرب.

كانت مهمته هائلة!!

وإنَّ الزَّعم القائل بأن فترات تلقّيه الوحى كانت نوبات صرعٍ زعمٌ خاطئٌ على نحو جليٍّ.. ذلك لأنّ من يتعرّض لهذه النوبات، لايمكن أن يكون مالكًا وعيه ومنطِقَه إلى حدِّ القدرة على النّطُق بمثل المقاطع المعقَّدة والعميقة التى نطالع الكثير منها فى القرآن..

إنَّ الإخلاص الذى تكشّف عنه محمد فى أداء رسالته، وما كان لأتباعه وأصحابه من إيمان كامل بما نزل عليه من وحى، واختبار الأجيال والقرون.. كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيِّما ضربٍ من الخداع والتلفيق.

فلم يعرف التاريخ أى تلفيق دينى متعمد ـ حتى حين يكون صاحبه عبقريًا فى الدجل ـ استطاع أن يعمر طويلاً.

وإن الإسلام لم يعمِّر حتى الآن ما ينِيِّف على ألف وأربعمائة سنة، فحسبُ بل إنه لا يزال يكسب فى كل يوم أتباعًا جددًا".

* * *

حين وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه "رحمة للعالمين" لم يكن هذا الوصف تحيّة من عند الله له فحسبُ.. بل كان كذلك إرهصًا بما سيظفر به من البشرية فى كل

عصورها وأجيالها من حمد لا يطاول، ومجد لا ينصُل بهاؤه.. بما يحمل قلبه الكبير للناس من مرحمة، وبما يغذوهم به من نعمة الهدى وزاد الحقيقة.

وهكذا لم يكن الرسول ﷺ عظيم أيام دون أيام ولا عصور دون عصور.. لأنه لم يكن داعية مرحلة بل داعية أبدا!! ولقد غدقت روافده وينابيعه ـ عبر الأجيال والقرون ـ بكل طيِّب وصادق وجميل من عذب القول وخالص العمل، وجلال السلوك!!

من أجل ذلك، كان "الرجل" الذى تتأنّق فيه معالى الأمور وتتألّق به ومعه القدوة الصالحة فى كل عصر وجيل!!

ومنذ جاء محمد ﷺ وإلى يوم الناس هذا. ثم إلى الأبد وما بعد الأبد ـ إن كان للأبد بعد ـ.. يجد كلُّ عصرٍ فيه وفى دينه قدوته، وأُسوته.. وآماله المرجوَّة.. وخلاصه المرقوب!! هو إذن إمام كل زمان. وقائد موكبٍ متساوق من الناس والأيام والأحلام والمبادئ والرُّؤى والقيم.. موكب لا يُؤذن بانتهاء..

ولقد أذعن لهذه الحقيقة وأذاع بها ـ منصفون كثيرون من مفكرى أوربا المنصفين..

وهذا واحد منهم يقول:

"لقد أظهر محمد عظمته الحقيقية فى أنه لم يكن رجل عصرٍ بعينه.. بل رجل كل العصور.. ولم يكن محمد حالما.. بل عكف على ترسيخ أسس المجتمع الذى رسمه لنفسه..

"كان رجل دولة لا نظير له!! فقد استطاع فى عصرٍ عمَّه التَّفسخ الذى لم يكن ثمة أمل فى الشفاء منه.. وبالخامات البشرية التى وجدها بين يديه من حواريِّيه وأصحابه.. أن يبنى دولة ومجتمعًا على أسس عالميَّة رائعة"!!

هكذا صدع المستشرق "موير" وصدح بهذه الشهادة الصادقة فى كتابه: "حياة محمد" رغم ما كان يخرج به أحيانًامن استنتاجات مغلوطة..!!

إنَّ شرف الحق وقداسته يفرضان على أُولى الألباب والنُهى الاحترام لهما، والاعتراف بهما. وبالتالى لمن وبمن يحمل راية الحق، حانيًا عليه.. وداعيًا إليه..

هكذا كان الرسول محمد ﷺ ولسوف يبقى، فى الصَّدارة من هؤلاء الحانين والداعين.

* * *

تُرى من يكون هذا الرجل الفذّ، والرسول العظيم.. وماذا كان سره المعجز والمهيمن؟؟ أمّا من يكون؟؟ فسيأتى حديثه عما قليل.. وأمّا سرّه الذى حبّبه إلى الناس وزيّنه فى قلوبهم ـ مكذّبين ومؤمنين.. راضين وكارهين.. ممَن هم معه، وممَّن هم عليه. فأمر يبهر الألباب حقًا.. وتحار فيه العقول!!

فمِنَ الجاهلين الذين آمنوا به، واتَّبعوا النُور الذى أُنزل معه.. إلى أولئك المفكرين الكبار من أوربا والغرب الذين لم يسلموا معه.. وأسلموا واستسلموا لسرّه الجليل، وعظمته المتفوّقة، ومواهبه المتألّقة، بين أولئك وهؤلاء رؤية مشتركة لهذا السرّ، ولتلك العظمة وهاتيك المواهب.

وهى رؤية تُرى المؤمنين مناسكهم وأسوتهم.. وتُرى غير المؤمنين، ذلك الألَق الإنسانىّ الذى يفجّر فى أنفسهم التيّه والخُيلاء، إذ أنّهم ينتمون لهذه البشرية الباقية التى أنجبت ـ فيمن أنجبت ـ هذا الإنسان الممجّد والعظيم..

وليس إجلال المفكّرين الغربيين له بأكثر دلالة من إجلال الذين عاصروه من العرب، وتلقَوْا منه كلمات الله، وحملوا معه راية القرآن والإسلام.

وليس السرّ الكامن وراء هذا الإجلال من كلا الفريقين إلاّ تفسيرًا صادقًا

للعُجب الذى يملأ أفئدتنا ويستجيش ألبابنا تجاه بساطة وعظمة وتأثير هذا الرسول الأمين.

ففى بيئته وقومه، وزمانه، حيث يقوم لرب العالمين، بين قوم لهم فى بعض المواهب والخصائص شُموخ.. وإنّهم لعنيدون فى طلب الدّليل والبرهان على كلّ دعوى وقضيَّة.. متعاظمون حتَّى حين تغشَاهم المسغبة ويُملِقون.. سادة لم يذلُّوا قطُّ لغازٍ ولا دخيل.

فى هذه البيئة اللافحة والمستعلية. وبين هؤلاء الناس المتغطرسين الغلاظ، كيف فرضت شخصية الرسول ﷺ، احترامها وجلالها، حتى قبل أن يُبعث رسولا.. بل حتَّى وهو شاب فى عمر أبناء بعضهم، وأحفاد الآخرين؟؟

ثم كيف أشرقت قلوبهم بنور ربها بعد بعثته، وحملوا من الإيمان ما يبدُّ كل نظير..؟!

دعونى أنقِلْ من كتابى "رجال حول الرسول" هذه الكلمات والتساؤلات:

- ما الذى جعل سادة قومه يسارعون إلى كلماته ودينه ـ أبو بكر، وطلحة، والزبير، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص.. متخلِّين بهذه المسارعة المؤمنة عن كلّ ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه، مستقبلين ـ فى ذات الوقت ـ حياة تمُور مورًا شديدًا بالأعباء وبالصّعاب وبالصّراع..؟

- ما الذى جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه، ويُهْرَعون إلى رايته ودعوته وهم يبصرونه أعزل من المال، ومن السلاح.. ينزل به الأذى ويطارده الشر فى تحد رهيب دون أن يملك له دفعًا؟

- ما الذى جعل جبار الجاهلية ـ عمر بن الخطاب ـ وقد ذهب ليقطف

رأسه العظيم بسيفه يعود ليقطف بنفس السيف الذى زاده الإيمان مضاءً رءوس أعدائه ومضْطَهديه..؟

- ما الذى جعل صفوة رجال المدينة ووجهائها يفدون إليه ليبايعوه على أن يخوضوا معه البحر والهول، وهم يعلمون أنَّ المعركة بينهم وبين قريش ستكون أكبر من الهول..؟

- ما الذى جعل المؤمنين به يزيدون ولا ينقصون، وهو الذى يهتف فيهم صباح مساءَ:

لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ، ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم .؟

- ما الذى جعلهم يصدقون أنَّ الدنيا ستُفتح عليهم أقطارها. وأن أقدامهم ستخوض خوضًا فى ذهب العالم وتمشى فوق تيجانه.. وأن هذا القرآن الذى يتلُونه فى استخفاء ستردده الآفاق عالِىَ الصَّدْح قوىَّ الرَّنين - لا فى جيلهم فحسب.. ولا فى جزيرتهم وحسب.. بل عبر جميع الزمان وجميع المكان.

- أجل.. ما الذى جعلهم يصدِّقون هذه النبوءة يحدِّثهم بها رسولهم ﷺ، وهم الذين يتلفتون فلا يجدون أمامهم وخلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم سوى القيظ والسغب وحجارة تلفظ فَيْحَ الحميم، وشجيرات يابسة طلعها كأنّه رُءوس الشياطين.؟

- ما الذى ملأ قلوبهم يقينًا وعزمًا..؟

إنه ابن عبد الله !!

ومن لكل هذا سواه؟!

لقد رأوا رأى العين كلَّ فضائله ومزاياه.

رأوا طُهره، وعفته، وأمانته، واستقامته، وشجاعته.

رأوا سُموَّه وحنانه.. رأوا عقله وبيانه.. رأوا الشمس تتألق صدقه وعظمة نفسه..

سمعوا نموَّ الحياة يسرى فى أوصال الحياة عندما بدأ محمد ﷺ يفيض عليها من وحى يومه وتأمُّلات أمسه..!

رأوا كلَّ هذا، وأضعاف هذا، لا من وراء قناع.. بل مواجهة وتمرُّسًا، وبصرًا وبصيرة..

وحين يرى عربىُّ تلك العصور شيئا ويفحصه فلا ينبئك آنئذ مثلُ خبير..

فهم أهل "القيافة والعيافة" يرى أحدهم وقع الأقدام على الطريق فيقول لك: هذه قدم فلان بن فلان..!!

ويشم أنفاس محدِّثه فيدرك ما تحت جوانحه من صدق أو بهتان.

هؤلاء رأوا محمدًا ﷺ وعاصروه منذ أهلَّ على الوجود وليدًا.

لم تخْفَ عليهم من حياته خافية.

كلُّ رُؤَاه، كلُّ خطاه، كلُّ كلماته، كلُّ حركاته،بل كلُّ أحلامه وأمانيه وخاطرات نفسه كانت من أوَّل يوم أهلَّ فيه على الدنيا حقًّا للناس جميعًا.

لكأنَّ الله تعالى أراد بهذا أن يقول للناس هذا رسولى إليكم ـ وسيلته المنطق والعقل ـ وهذه حياته كلها مذ كان جنينًا.

فبكلِّ ما معكم من منطق وعقل، افحصوها وحكّموها.. هل ترون فيها شبهة..؟ هل تبصرون زيفًا..؟ هل كذب مرَّة؟.. هل خان مرَّة؟.. هل هبط مرَّة؟.. هل ظلم إنسانًا..؟ هل كشف عورة..؟ هل خفَر ذمة..؟ هل قطع

رحمًا..؟ هل أهمل تبعة..؟ هل تخلّى عن مروءة ونجدة..

هل شتم أحدًا..؟ هل استقبل صنمًا؟.

* * *

كما يقول "كارْليل":

"كان ظهور محمد ﷺ في الحياة ولادة من الظلمة إلى النور..!"

كان قومه على شفا حفرة من النار، فأنقذهم منها.. ولا يزال، وسيظل منقذًا لكلِّ الواقفين على شفا الحفرة.. والسائرين ـ في عمى ـ نحو مهاوى الخطر!! وإنَّ الكلمات المضيئة والجريئة والمفيئة التى واجه بها قومه فى الساعات الأولى من بعثته سيُظِلُّ بوجهها إلى العالم فى شتى عصوره ودهوره وأجياله..

وهذا ما يجعله "رجل كلِّ العصور"..!!

فعندما أنبأه الله سبحانه أن وقته قد حان.. وأنَّ دوره قد جاء ليبلِّغ رسالته ونذارته وبشارته بادئًا بعشيرته الأقربين ـ صعد الصفا، ونادى يا معشر قريش..

وراح القُرشيون يعدون، ويقطعون الأرض وثبا نحو الأمين!!

وتحلَّقوا حوله، وعيونُهم تتلهَّف، وآذانهم تُعطى السمع فى سكون.

وأشار محمد ﷺ بيمينه ـ بارك الله يمينه ـ وقال:

"أرأيتم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم. أكنتم مُصدِّقِيَّ..؟

قالوا فى صوت واحد: نعم واللات.. فما جرَّبنا عليك كذِبًا..!!

قال: فإن الله قد أرسلنى إليكم، لتعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.. وإنّى نذير لكم بين يدى عذابٍ شديد".

وتغشّى وجوه أكثرهم تجهُّم ووجوم.. ولـوَوْا أعنـاقهم التـى بـدت وكأنهـا تحمل الأَنيار المعرضة فى أعناق البقرات والثيران!!.

لكنهم لاذوا بصمتٍ. ولم تفتح بدائِهُهم عليهم بكلام..

وفجأة. انبعث أشقاها ومن أسفٍ أن كان هذا الشقىُّ عمَّه أبـا لهـب، الـذى قال: تبًا لك.. ألهذا جمعتنا؟؟

* * *

إن محمدًا ﷺ..

إن "رجل كل العصور" لا يزال هناك قائمًا فـوق الـصفا أو فـوق البطحـاء ينادى الناس أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد.. يدعوهم إلى الخير، ويناديهم إلى الحقيقة.. ويدلُّهم إلى خالقهم. ربِّهم وربِّ كل شىء!!

إنه يرسل فى الجموع من كلِّ جيل سَنا مبادئه وصدقه وكلماته الوضاء..!!

وينادى الذين تفصَّموا عن حقائق الـدين ـ كـل ديـن ـ إلى الحقيقـة التـى لا انفصام لها..

ولكلٍّ من تلك الجموع والأجيال "أبو لهبها" يشغَب بغثيث القـول وأرذلـه، ويقول للصوت الصادح بالحق: تبًا لك سائر يومك. ألهذا جمعتنا؟!

أجل إنَّ محمدًا ﷺ هنا وهناك.. إنه معنا ومع الآخرين.. مع البشرية كلها منذ اصطفاه ربُّه ليكون للعالمين نذيرًا..

إنَّه "رجل كل العصور"

منقذها، وهاديها، ومحطِّم أغلالها وسلاسلها ومطلق أرواح بنيها من الأسـر، وواضع الإصر عنها..

ومنذ قال الله تعالى له:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

"سورة هود:١١٢_١١٥"

منذ تلقّى من الحكيم الخبير هذه الآيات المباركات من القُرآن العظيم وهو يعلم أن أول عناصر الاستقامة كما أمر.. وعلى ما أمُر.. ألاّ يكفّ ـ ومن تاب معه ـ عن توجيه النداء إلى الناس، وتذكيرهم بأيّام الله، ودعوة المطرَحين فى الأمكان البعيدة، والمتاهات السحيقة إلى عالم القُرب من الله.. وإلى النور الذى لا ينطفئ، والصحبة التى لا تضل، والهدى الذى لا يزيغ ..

ولقد أدرك تمامًا.. لماذا أتْبع الله أمره له بالاستقامة على الأمر، والعزيمة على الرشد بقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ .

ذلك وأنّه رحمة الله للعالمين وأنّه رجلُ كلِّ العصور ونبيُّها ومعلّمُها، لابدّ أن تكون الوسيلة عنده فى طُهر الغاية ونبلها.. فى جمالها وجلالها.. فيكون مقامه دومًا مقام من يدعو جُموعًا.. لا من يسوق قطيعًا!!

وكيف يوجّه تعاليمه وقيمه.. وعقله وقلبه.. وهُداه ونُهاه إلى البشر أجمعين إذا لم تكن الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة نهجه وسبيله..؟؟

وهل كان الفكر الأوروبىُّ المنصف فى القرن العشرين سيرى فيه "رجل كلِّ العصور" لو كانت قوَّة العضلات، هى وسيلته إلى حمل الناس على ما يرجو لهم من نعمة.. وما يبشِّر به من مبادئ العدل، والإخاء والرحمة..؟؟

وهل رأينا، أو سمعنا أحدًا يصف: الإسكندر، أو جانكيز خان، أو يوليوس قيصر، أو نابليون، أو هتلر، بأنه "رجل كل العصور"..؟؟

ما كان ذلك ليكون..

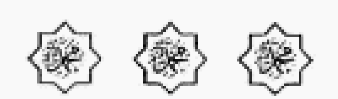
فالقوَّة الغاشمة لا يمكن لها بحالٍ أن تهَبَ الدنيا "رجل العصور"، بل ولا رجل عصرٍ واحد.. إنَّما تقدر العظمة وحدها على ذلك.. عظمة الشخص.. وعظمة المبادئ.. وعظمة الغايات.. وقبلها عظمة الوسائل..!! وكذلكم كان الإنسان العطر، والفريد الذى ختم الله به رسله وأنبياءه .

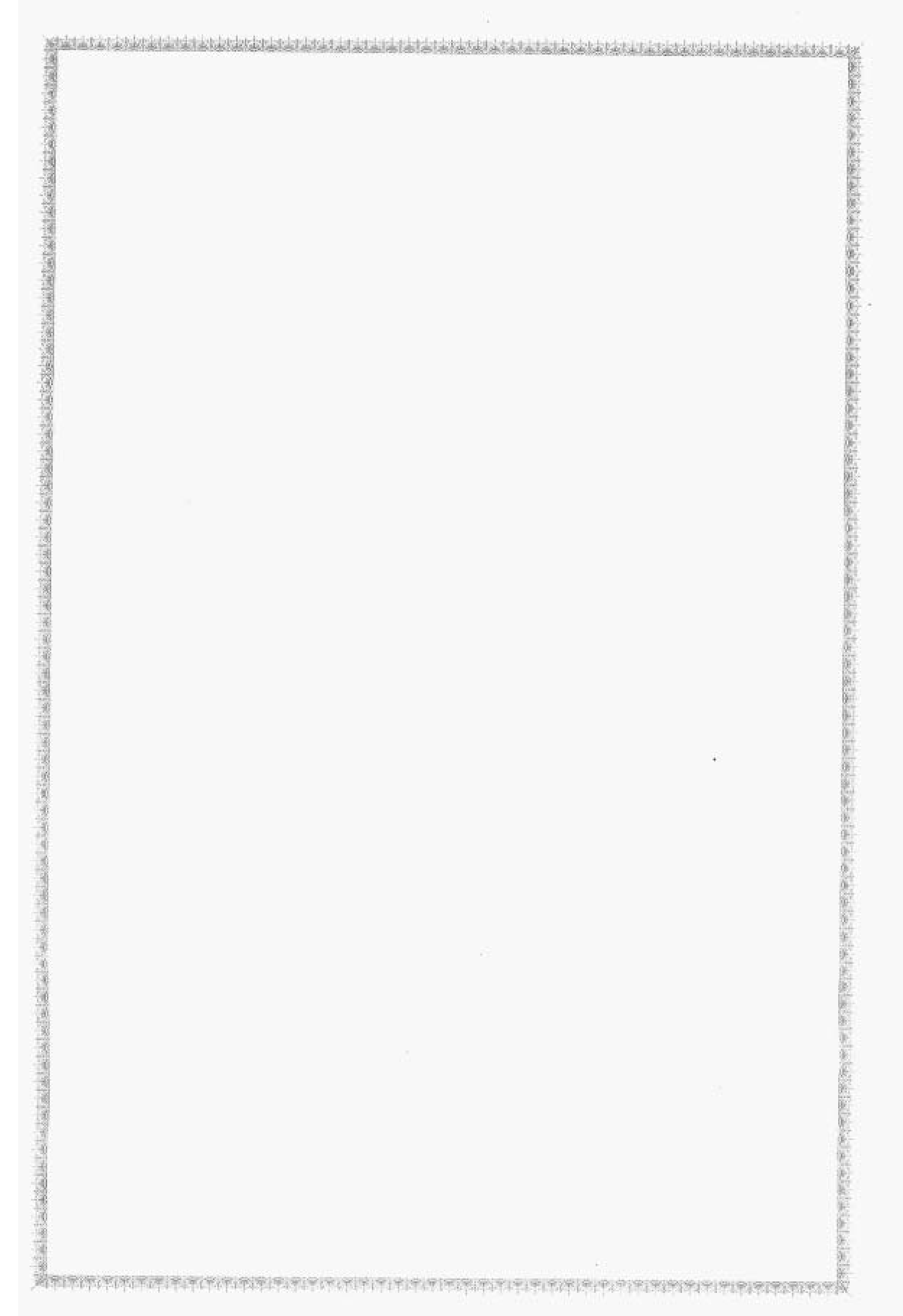
الرحمة المهداة ..

المبشِّر، والنذير..

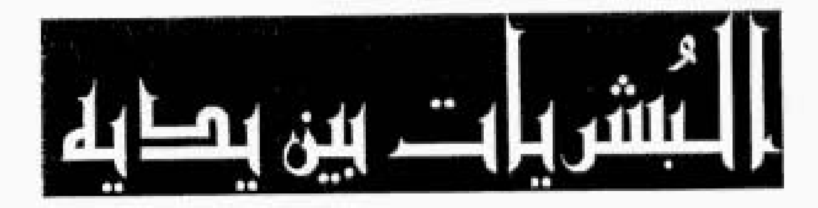
والسراج المنير..

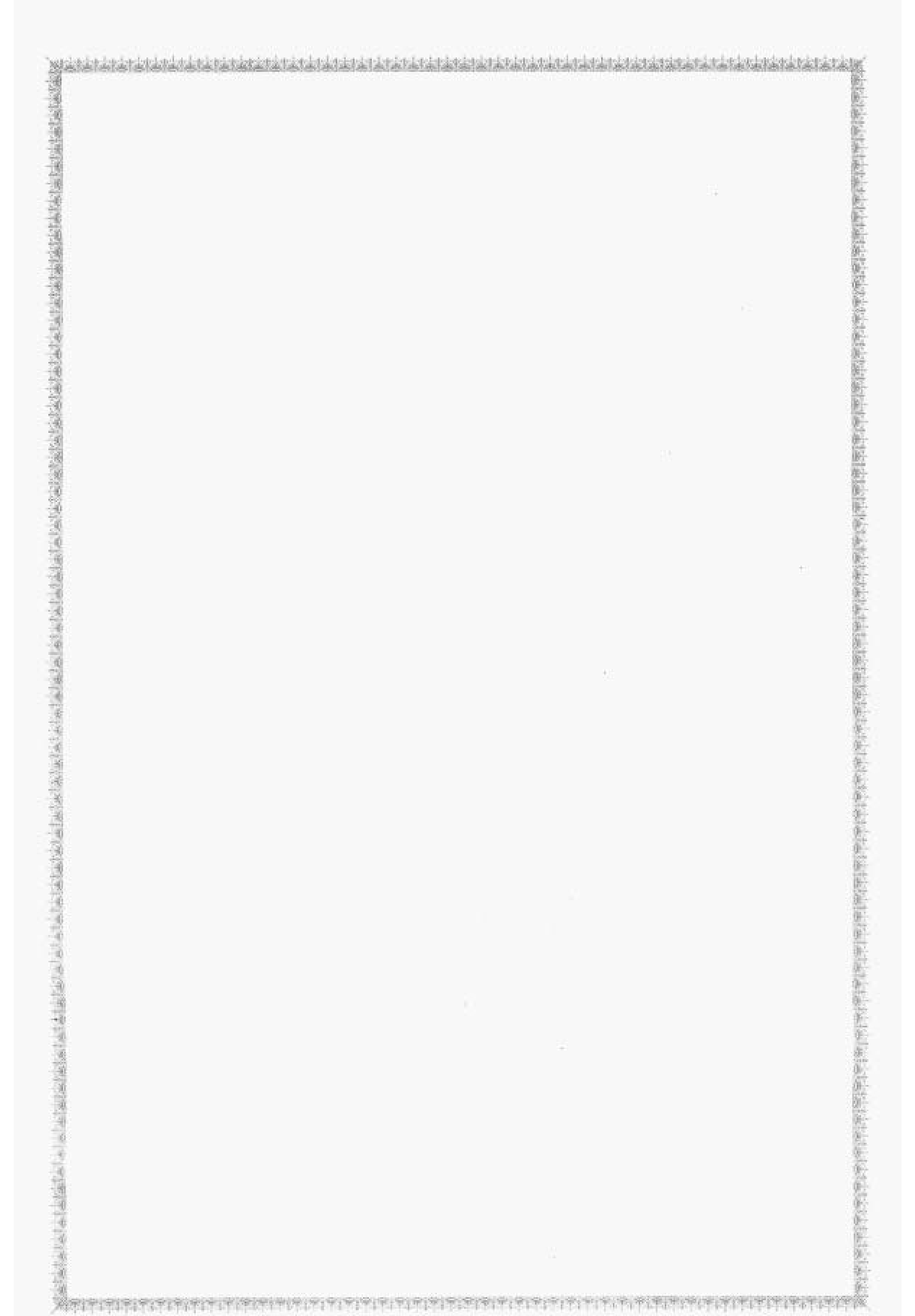
ورجل كل العصور..!!





الفصل الثالث





لأنـه رسـول رب العـالمين، ولأنـه المـدَّخَر والمـذخور، ليخـتم الله بـه رسـله ورسالاته، ودينه، فقد كان لابد أن تقدمه للمستقبل النُّبوءات الصادقة.. وتُمهد له المبشرات المتألقة..!!

ولقد حكى القرآن الكريم طرفًا من تلك النبوءات. وذلك حين قال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

"سورة الأعراف: ١٥٧"

كما نقل إلينا ما قاله "المسيح" عليه صلاة الله وسلامه لقومه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾

"سورة الصف: ٦"

كذلك حدثنا القرآن الصدوق الحكيم عن الموثق الذى أخذه الله على أنبيائه.. وهو بالتالى مُلزم لأمم أولئك الأنبياء..

تلك الأمم التى تشهد بعثة سيدنا "محمد" عليه الصلاة والسلام وها هو ذا الموثق العظيم:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

"سورة آل عمران: ٨١"

واضح من تلك الآيات الكريمة، أن ثمة "نبوءات" صادقة.. و "مبشرات" واثقة!!

وواضح كذلك أن الذين اشتركوا فى بثٍّ هذه النبوءات من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ قد تركوا لأتباعهم فى كل العصور والأجيال وَصَاةً خالدة، بأن يتبعوا هذا الرسول الكريم القادم، إذا هُم شهدوا مَبْعثه.. سواء منهم الذين سيُعاصرونه، أو الذين سيجيئون بعد عصره إلى أن يرث "الله" الأرض ومن عليها..

ولقد اقتضى ذلك أن تكون جميع القنوات مُفتحة وموصولة بين الرسول وبين من سبقوه من إخوانه ـ عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام..

وهكذا وجدنا الإسلام يرفُض كل إيمان به وبرسوله ما لم ينتظم الإيمان بكافة الأنبياء السابقين، وبالكتب والأديان السماوية السالفة، والمنزلة من لدُنْ

حكيم عليم!!

وفى الآيات الأوليات من القرآن العظيم ينعتُ الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ .. وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

"سورة البقرة: ٣،٤"

كذلك يدعوهم عزَ وجلَ إلى أن يحملوا فى أفئدتهم إيمانًا صادقًا، وولاءً مُطلقًا لهذه القضية:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

"سورة البقرة: ١٣٦"

هناك ـ إذن ـ اعتراف مُتبادل بين الرسول "محمد" ﷺ وبين إخوته السابقين. وبين الإسلام وما سلف من شرائع أو "أديان"..

وهناك ـ كذلك ـ عهد مُشترك بين جميع الأمم والشعوب التى اختصها الله برحمته، حين أرسل فيهم وإليهم من يزكيهم،ويهديهم إلى صراط الله العلى الحميد من الأنبياء والمرسلين..

ولقد فازت "الأمة المسلمة" فى كل عصورها وأجيالها بشرف الحفاظ على

هذا العهد، والوفاء به، والولاء له..

فلا تجد "مسلمًا" واحدًا، خلال الأربعة عشر قرنًا التى عاشها الإسلام منذ أهَلَّ وبَزغ..

ولن تجد "مسلمًا" واحدًا فيما سيأتى من قُرون وأزمنة، وأجيال، يكفر برسول واحد من المرسلين السابقين أو يكفر بكتاب مُنزَّل واحد من الكتب السماوية التى بقيت بلا تزيُّد أو تحريف.. ما دام قد آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً..

وحين أسأل عن أعظم خصائص الإسلام، أجيب: إنها "عالميته"!!

فهو "عالميُّ" النزعة، والاتجاه، والمنهج..

شهد له بذلك ربه ومُنزِّله حين نادى رسوله:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

"سورة يونس: ١٠٧"

وحين حمَّله مسئولية شُمُول الدعوة، وعالـمِّية البلاغ، قال:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

"سورة الأعراف: ١٥٨"

وبينما قال ربنا سبحانه عن الرسل السابقين:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾

"سورة النحل:٣٦"

نجده يقول للرسول "محمد" عليه الصلاة والسلام:

﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾

"سورة النساء: ٧٩"

وحين تحدث الله فى كتابه الكريم عن الأمم ومُرْسليها قال:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

"سورة فاطر: ٢٤"

وهذا مصداق لما سبق أن ذكرنا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

"ما من نبى إلاّ بُعث لقومه خاصة. إلاّ أنا.. بعثت إلى الأبيض، والأحمر، والأسود".

وكثيرًا ما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: "أنا دعوة أبى إبراهيم".. مشيرًا بهذا إلى موقف الخليل حين فرغ ومعه ابنه "إسماعيل" عليهما السلام ـ من بناء الكعبة، إذ اتجه إلى الله فى ضراعة واثقة، تقيَّة، ودعا:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

"سورة البقرة: ١٢٩"

والمقصود ذرية إسماعيل.

ولقد تقبل الله ضراعته واستجاب دعاءه.. وسارع إليه ببُشراه إنَّه ـ سبحانه ـ قد سمع وأجاب!! كما سارع إليه بما أخذ على نفسه ـ جل جلاله ـ من عهد أن يحقق لخليله "سيدنا إبراهيم" ما يرجو ويتمنى..

و "العهد القديم" من الكتاب المقدس، هو الذى ينقُل إلينا هذا الوعد، وذلك العهد فى هذه الفقرة من سِفْر التكوين:

"وقال الربُّ لإبرام ـ يعنى إبراهيم ـ اذهب من أرضك

ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أُرِيكَ، فأجعلك أمّة عظيمة.. وأبارك، وأُعظم اسمك، وتكون بركة، وأبارك مُباركيك ولاعِنُكَ ألْعَنُه.. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض"..!!

سفر التكوين ـ الإصحاح الثانى عشر ٢،٣

مِن هى قبائل الأرض وأقوامُها الذين بُورِكَ بينهم "سيدنا إبراهيم" عليه السلام..؟؟

من ـ غير المسلمين ـ يُصلون عليه ويسلمون، ويباركون اسمه وذِكراه فى كل صلواتهم آناء الليل، وأطراف النهار، قائلين:

"اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

"وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد"!؟

إن "النُّبوءة" التى أسلفناها، والمنقولة عن سِفْر من أسفار التوراة، هو "سفر التكوين" لتصِلُنا بنبوءات أُخر، زخرت بها التوراة، والإنجيل، حتى فى النسخ القائمة اليوم..

ولقد تتبع طرفًا من هذه النبوءات، وتناولها بتعليقه الذكى المضىء، الفيلسوف الهندى المسلم "مولانا محمد على" فى كتابه القيِّم: "حياة محمد، ورسالته" ترجمة الأستاذ "منير البعلبكى" وإنه ليسعدنى، ويسعد القراء معى أن نصحبه فى حديثه هذا.

"إن الكتب السماوية كلها تشتمل على نُبوءات عن مجىء الرسول.. وإنه

ليبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تصهر الشرائع الدينية المختلفة فى عقد واحد، ينتظمها كلها.. وذلك كى تصهر الإنسانية فى أخوَّة كونية، فأرسلت ـ أى العناية الإلهية ـ نبيًا ورسولاً يحمل رسالة إلى الجنس البشرى كله..

ولقد احتفظ العهد القديم والعهد الجديد ـ هذان الكتابان المقدَّسان ـ على نحو سليم بعدد من النبوءات عن مجيء الرسول "محمد" عليه صلاة الله وسلامه.. ففى سفر التكوين يقول الله لخليله إبراهيم:

"وأما إسماعيل، فقد سمعتُ لك فيه.. هأنذا، أُباركه، وأثمره، وأكثره كثيرًا جدًا.. اثنى عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمة كبيرة"

سفر التكوين الإصحاح السابع عشر ٢٠

فهنا أعطى الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة نفسها التى أعطى الوعد الخاص بإبراهيم وذريته..

ثم هناك نُبوءة أخرى من خلال الوعد الذى وعد الله إبراهيم إياه.. ها هو ذا!:

"وأُقيم عهدى بينى وبينك، وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدًا أبديًا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك.. وأعطى لك، ولنسلك من بعدك أرض غُربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا لك، وأكون إلههُم"

سفر التكوين الإصحاح ١٧ : ٧،٨

وهذه علامة منظورة، تُرينا من هم الآن "الورثة الحقيقيون" للوعد الإلهى لإبراهيم عليه السلام.

فمن الحقائق التاريخية أنه ما إن جاء الرسول "محمد" حتى دخلت "أرض

الميعاد" فى حوزة المسلمين الذين بسطوا سلطانهم عليها طوال القرون "الأربعة عشر الماضية".. ولقد كان الغرض الأساسى للحروب الصليبية انتزاع "أرض الميعاد" هذه من أيدى المسلمين.. ولا ريب فى أنها ضاعت من أيدى المسلمين مؤقتًا "بعض الوقت" ولكنها سرعان ما أُعيدت بعد فترة وجيزة.. وإذا كان قد قُدِّر لها أن تضيع منهم فيما بعد فلن يستمر ذلك طويلاً.. وفاء بالوعد الذى وُعِدَه إبراهيم..

أمّا النبوءة التالية المعلِنة مجىء الرسول الكريم "محمد" فقد جاءت على لسان "موسى" عليه السلام:

"أُقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه.. فيكلمهم بكل ما أُوصيه به"

سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ١٨:١٨

وهذا واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار!! فإن أيًا من الأنبياء الإسرائيليين. الذين جاءوا بعد "موسى" فى تعاقب مُتطاول، حتى مجىء "يسوع" لم يدع أنه النبى الموعود بهذه النبوءة.. ولأسباب جلية لم يكن فى ميسور خلفاء "موسى" عليه السلام أن يكونوا مثله،لأنهم ما جاءوا إلاَّ لتنفيذ شريعته ليس غير.. وكان أمر "النبوءة" معروفًا لدى الخاصة والعامة من اليهود الذين انتظروا جيلاً بعد جيل، ظُهور نبى مثل "موسى" ويؤيد هذا تأييدًا كافيًا ذلك الحديث الذى دار بين "يوحنا المعمدان"، وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه: كما يروى سفر يوحنا:

"من أنت..؟؟

"المسيح أنت؟؟

"قال: لستُ أنا..

"إيليا أنت..

"قال: لست أنا..

"ذلك النبى أنت؟؟

"فأجاب: لا..!!

سفر يوحنا الإصحاح الأول:١٩، ٢٠، ٢١.

وهذا يظهر فى يقين أن اليهود كانوا يترقبون ظهور ثلاثة أنبياء مختلفين: أولهم "إيليا" الذى اعتقدوا أنه سيظهر بشخصيته كرة أخرى..وثانيهم "المسيح" وثالثهم "نبىّ" ذو شهرة عظيمة إلى درجة رأوا معها أنه من غير الضرورة نعته بأى وصف مُميِّز..!! لقد كان قولهم: "ذلك النبى" كافيًا للدلالة على من يعنون.. وهكذا كان مدى الشيوع والذيُوع اللذين حظيتْ بهما ـ بين اليهود ـ نُبوءة "موسى" فيما يتصل فى ظهور نبىٍّ مثله.

ولقد تحققت هذه النبوءات فى شخصىْ "يسوع ويوحنا".. فقد أعلن أولهما أنه: "المسيح" وأعلن ثانيهما أنّه بُعث فى روح "إيليا".. ولم يدّع أحد منهما أنه النبى الموعود المماثل لموسى..بل ولم يعتبرهما أحد من الذين آمنوا بهما ـ ذلك النبى الموعود..!!

وهكذا ظلّت نُبوءة سفر "تثنية الاشتراع" حول نبى مثل موسى "غير محققة بقدر ما يتعلق الأمر بالإسرائيليين.

وإذا قلبنا صفحات تاريخ العالم لم نجد أى نبى غير "محمد" عليه الصلاة والسلام أعلن أنه النبى الذى تنبأ "موسى" بظهوره..

والوقائع تؤيد هذا التفسير، فقد كان "موسى" صاحب شريعة.. وكذلك

كان "محمد" صلوات الله وسلامه عليهما.. وليس بين الأنبياء الإسرائيليين الذين خلفُوا "موسى" نبى واحد جاء بشريعة جديدة.. ومن هنا، كان الرسول الكريم "محمد" بوصفه النبى الوحيد الذى أعطى الناس شريعة، هو وحده المماثل لموسى.. يُصدق هذا القول الله سبحانه فى قرآنه الكريم:

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً ﴾

"سورة المزمل: ١٥"

إن عبارة "أقيم لهم رسولاً من بين إخوتهم" التى جاءت على لسان موسى عليه السلام، لتُلقى ضوءًا جديدًا على هذه الحقيقة.. إذ معنى ذلك أن النبى الموعود لن يجىء من بين الإسرائيليين أنفسهم.. بل من بين "إخوتهم" من ذرية "إسماعيل".

وهكذا، فإن نبوءة "تثنية الاشتراع" السالفة، تُشير بما لا يحتمل اللبس إلى الرسول الكريم محمد ﷺ الذى وجدت فيه مصداقها..!!!

وثمة نُبوءة أخرى، نقع عليها فى تعبيرات لا تقل وضوحًا وجلاء.. وهى موجودة فى نفس السفر "تثنية الاشتراع" حيث يقول:

"جاء الربُّ من سيناء.. وأشرق لهم من شاعير.. وتلألأ من جبل فاران.. وأتى من ربوات القدس"..

فالمجىء من "سيناء" يشير إلى ظهور "موسى".. والإتيان من "ربوات القدس" يشير إلى ظهور "يسوع"، إذ تلقى هذان النبيان النداء الإلهى فى هذين الموضعين.. أما "فاران فمن المسلم به أنها الاسم القديم لأرض "الحجاز حيث ظهر "محمد" عليه الصلاة والسلام من بين حفدة "إسماعيل"!

وليس ذلك فحسب. بل إن ثمة نُبوءة رابعة، تنصُ صراحة على أن أرض النبى الموعود، هى بلاد العرب.

إذ يقول "سفر أشعيا" !

"وحىّ من جهة بلاد العرب فى الوعر من بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدَدانيين..

هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سُكان أرض تيماء..

وافُوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا.. من أمام السيف المسلُول، ومن أمام القوس المشدود، ومن أمام شدة الحرب".

سفر إشعيا الإصحاح ٢١: ١٥،١٤،١٣

"إن لفظة.. بلاد العرب.. قبل كل شيء ذات مغزى كافٍ. ثم إن الإشارة إلى من هاجر، تُلقى ضوءًاجديدًا على المقصود بالنبوءة.. فتاريخ العالم لم يُدوّن غير هجرة واحدة قُدِّر لها أن تكتسب أهمية الحدث الحاسم.. وهى هجرة الرسول من مكة إلى المدينة.. حيث بدأ التقويم الإسلامى، وحيث استهل فصل جديد فى تاريخ الإسلام..

أو على الأصح فى حضارة العالم كله..!!

وعبثًا تُقلب صفحات التاريخ التماسًا لهجرة أخرى، تمحصت عن نتائج فى مثل هذه الخطورة، وبُعد الأثر.. فإذا أضفنا إلى هذا نص النبوءة الصريح على "بلاد العرب" بوصفها مسقطًا لرأس النبى الموعود، لوقفنا أمام دليل لا نزاع فيه على أن النبوءة المذكورة تشير إلى الرسول "محمد" ﷺ..!!

وهناك نُبوءات أخرى كثيرة أطلقها الأنبياء اليهود مثل "داود، وسليمان،

وحقَاى" وغيرهم. ولكننا رغبة فى الإيجاز، سنختار واحدة منها، هى التى أطلقها آخر الأنبياء الإسرائيليين، وهو "المسيح" حيث يقول:

"إن كنتم تحبوننى، فاحفظوا وصاياى.. وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم "مُعزِّيًا" آخر، ليمكث معكم إلى الأبد.. روُح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه"

سفر يوحنا الإصحاح ١٧،١٦،١٥،١٤

ثم تقول النُبوءة:

"وأما المُعزَى، الروح المقدسة الذى سيرسله "الآب" باسمى، فهو يعلمكم كل شىء. ويذكركم بكل ما قلته لكم".

وفى موضع آخر فى نفس السفر المذكور تقول النبوءة على لسان السيد المسيح:

"إن لى أمورًا كثيرة أيضًا، لأقول لكم.. ولكن لا تستطيعون أن تحتموا الآن.. وأما حين يأتى ذاك.. روح الحق..فهو يرشدكم إلى جميع الحق"!!

سفر يوحنا ـ الإصحاح ١٦،١٢،١٣

هذه الكلمات المنبئة، تُبشر فى صراحة كاملة بمجىء نبى آخر بعد "يسوع" عليه السلام..

ولقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم ولا يزالون ابتغاء العُدول بها عن قصدها بحيث تطبق على "الروح القدُس"..؟؟ وهذا منهم يشكل استنتاجًا غير

صحيح.. إذ أن للنبوءة بقية يقول فيها "السيد المسيح": أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم "المُعزّى".

والعهد الجديد يذكُر أن "يُوحنا" كان مُفعمًا بالروح القدُس، ويذكُر أن "المسيح" تلقى الروح القدُس على شكل حمامة..

وإذن، فلمن تُشير هذه الكلمات: إن لم أنطلق لايأتيكم المعزّى..؟؟

إنها قطعًا لا تُشير إلى "الروح القدس" إذ من التجديف أو يكاد، الذهاب إلى أن "يسوع" لم يكن مُزودًا بروح القدُس!!

"ولا ريب فى أن كلمتى "الروح القدس" اللتين وردتا فى النُبوءة، إنما أُريد بهما أن تُشير إلى أن النبى المنتظر والموعود سيكون متحدًا مع "الروح المقدسة.

وقول النُبوءة عن الرسول القادم "ليمكث معكم إلى الأبد" يدلُ على أنه لن يكون بعد النبى الموعود نبى آخر جديد..!!

وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم عن "الرسول محمد"

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

"سورة الأحزاب: ٤٠"

وهذا أيضًا ما يقوله "القرآن الكريم" عن رسالة "النبى محمد" عليه صلاة ربنا وسلامه:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

"سورة المائدة: ٣"

ثم إن النبى الموعود تصفه النبوءة بأنه "روح الحق" والقرآن المنزل على "محمد" ﷺ يزكيه بقوله الكريم: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾.. وهكذا، فإن دعوات "إبراهيم، وإسماعيل" ونُبوءات "موسى وعيسى" وغيرهما، قد تحقق فى شخص الرسول الكريم "محمد" عليه الصلاة والسلام إلى أبد الآبدين..!!"

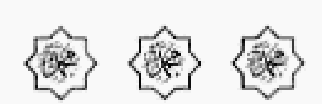
إذن لم تكن شهادات الكبار من مفكرى أوروبا فى القرنين الأخيرين، الشهادات التى سُقْنا فى فصلٍ سابق طرفًا منها.. أقول: إنها لم تكن وحدها الإشارات الضوئية على طريق الذين عرفوا، والذين سيعرفون عظمة رسولنا الكريم، وعظمة دينه ورسالته ودعوته!!

بل كانت هناك، قبل قُرون مديدة وكثيرة أصواتُ حق، ونداءات صدق تهتف بهذا النبى البشير، والنذير، والسراج المنير تُنادى أيامه، وترفع أعلامه..!!

كانت هناك دعوات "إبراهيم وإسماعيل" ونُبوءاتهما.. وكانت هناك نبوءات "موسى وعيسى".. وهى جميعًا تلقَّوْها عن الله الذى يصطفى من رُسله من يشاء.

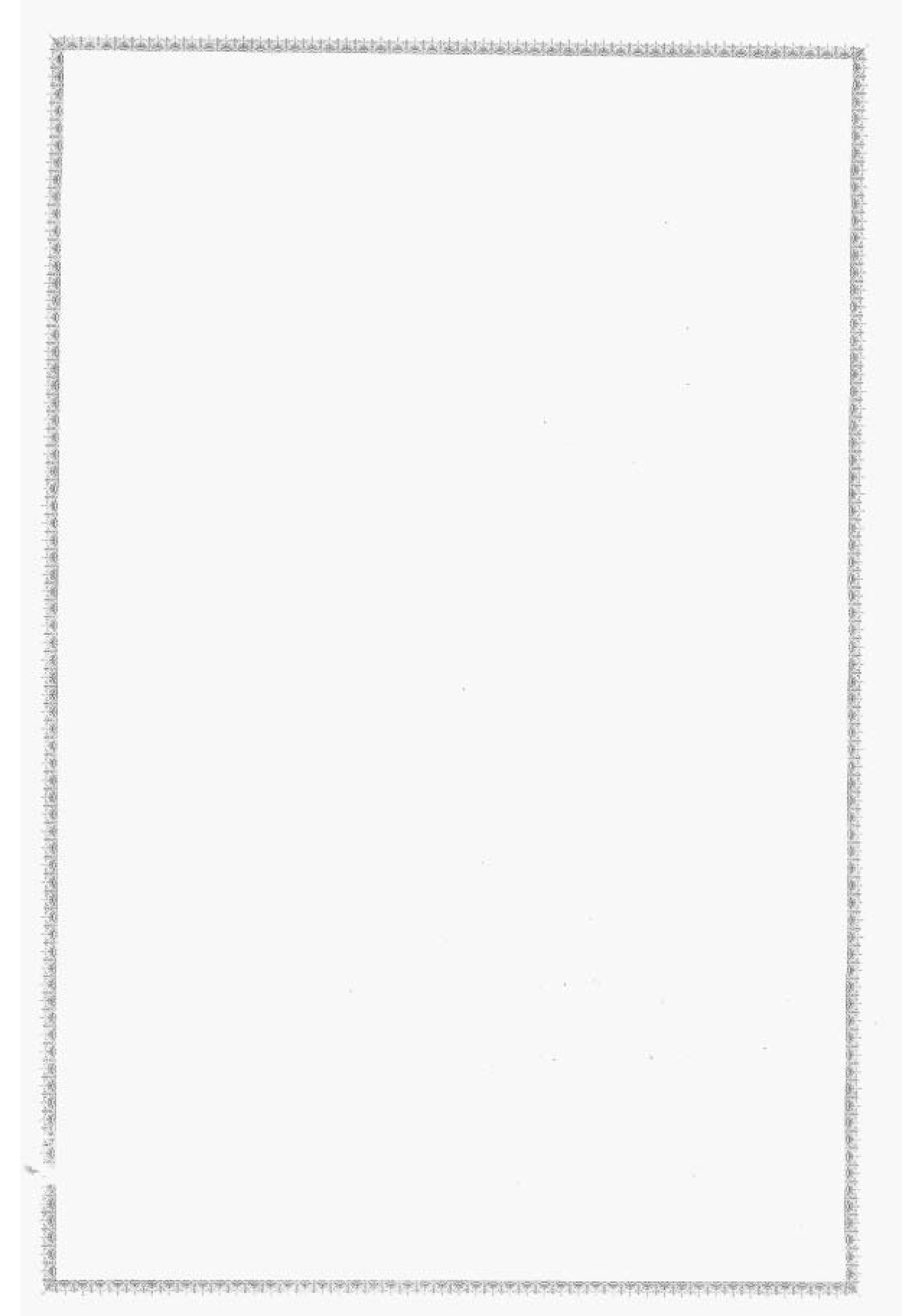
هى ـ إذن ـ كلمات الله.. فهل وعاها وحفظها وامتثلها، أتباع الرسولين الكريمين؟؟ أم ارتابوا، فهم فى ريبهم يترددون؟؟

ألاإنَّ "المسيح عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ لَيُنادى هؤلاء وأولئك: "طوبى للذين يسمعون كلام الله، ويحفظونه"..!!



الفصل الرابع

الرجل الكامن في الطفل



ذات يوم، وهو نائم تحت ظل شجرة وحيدة ويتيمة.. أقبل عليه أطفال من لداته وأترابه، يدعونه بعد أن أيقظوه من مرقده إلى المسير معهم للتفرج على زامر هناك فى شارع من شوارع مكة. يُغنى على مزماره غناء يطرب له الولدان، وبدلا من أن يهش الطفل للنبأ السعيد، والدعوة المبهجة، هز رأسه فى تأبٍّ وإعراض، وقال لهم: "أنا لم أخلق لهذا"..!!

ولعل إجابته هذه كانت نتيجة تجربة سالفة له.. فذات ليلة أو ذات يوم ذهب يسعى إلى سامر، فيه الناس يسمُرون.. لكنه لم يكد يبلغه ويأخذ مكانه بين المتحلقين، حتى راح فى نوم عميق، استيقظ منه بعد حين ليجد المكان الذى كان غاصًا ومكتظًا قد خلا من رواده، والسُمار قد رحلوا.. وآب إلى دار عمه دون أن يسمع ما سمع الآخرون من زمر ولهو..!!

تُرى هل طوَّف "الطفل" بخواطره حول هذا الذى حدث له؟ وهل استنتج منه أمرًا.؟

وهل كان المعنى الذى التمع فى خاطره، ثاويًا أمام موقفه الرافض لرغبة أترابه، ووراء اعتذاره الرقيق الذى عبَّر عنه بكلماته التى كانت "رجالا" وذلك حين قال: "أنا لم أخلق لهذا"..؟!

يبدو أن ذلك كان كذلك..

فسنلتقى به، بعد أن اختاره الله رسولا، يستدعى من ذكريات طفولته ذلك المشهد الأول، بل ويُفسِّره بأن الله سبحانه هو الذى ألقى عليه النوم، حتى لا

يقتحم سمعه ما كان ثمة من غناء ماجن أو زمر لاهٍ. لم تُخلق له أذناه، كانتا على موعد مع صوت آخر، وكلمات أخر، سيتنزل بها من لدن حكيم عليم شيخ الملائكة "جبريل الأمين" عليه السلام..!!

تحت إحساس عجيب، ونادر النظير، قال الطفل المبارك كلماته المرهصة والمضاءة بنور غيب لا يعرفه ولا يراه.. وإن كان يُحسه على نحو جلى.. قال كلمته المشرقة بنور ربها: "أنا لم أخلق لهذا"..؟؟

وقبل هذه الطفولة كان ميلاد..

ولن نقف طويلا أمام ما نقلته الأنباء ـ وربما الأساطير أيضًا ـ عن الخوراق التى صاحبت مولده.. فقد جرت عادة الناس، ولا سيما رُواة أخبار العظماء من البشر أن يملأوا الفراغ المحيط بمهد الوليد بالكثير الكاثر من الخوارق والحكايات، ظانّين أنهم بهذا يرفعون من قدر هذا العظيم أو ذاك.. وأنهم بهذا يُبوّئونه مكانًا عليًا.. مكان الذى لم يجئ كبقية الناس، بل جاء فى موكب حافل من مقادير الله الذى اختاره على علم واجتباه واصطفاه..

وأمام "محمد بن عبد الله" لا نجد إنسانًا تحتاج عظمته إلى التماس خوارق تُزكيها..

فغدًا، حين تكبر شخصية "الطفل" وتنمو.. ويتسلم من يمين الله ـ وكلتا يديه يمين ـ راية الرسالة والدعوة، سنجد آنئذ، أن معجزة "محمد" ﷺ بعد القرآن هى "محمد ذاته".!!

وإذن، فلا حاجة به إلى عُطور يُضمَّخ بها ميلاده.. فهو نفسه العطر، وهو العبير أطيب العبير..!!

بيد أن هناك حدثًا جليلا قد زامن مولده.. وهو جدير أن يُحسب فى عداد الخوارق من غير تكلُّف أو اعتساف.. ونحن نذكره، ونقضى معه بعض الوقت. لا

لشيء إلاَّ لأنه ارتبط بحياة هذا الوليد المبارك ـ حتى لقد صار تاريخ مولده مقترنًا بذلك الحدث.. فيقول التاريخ دائمًا: "إنه وُلد عام الفيل"..

ولعام الفيل قصة تُروى، باعتبارها ـ تاريخًا ـ صادقًا، وليست أسطورة نمقها الخيال..

والواقعة ـ كما يرويها "ابن هشام" تتلخص فى أن "أبرهة الأشرم" الذى كان واليًا على اليمن لنجاشىِّ الحبشة أراد أن يصرف الناس عن الكعبة، فبنى كنيسة فى أجمل زينة، وأروع معمار، ثم كتب إلى "النجاشى" يقول له: إنى قد بنيت لله أيها الملك كنيسة، لم يُبن مثلها لملك قبلك ولستُ بِمُنْتهٍ حتى أصرف إليها حجيج العرب..!!

وترامت أنباء هذه الكنيسة، وكتاب أبرهة إلى النجاشى، هذا الكتاب الذى فضح نوايا أبرهة الخبيثة والضالة.. ترامت هذه الأنباء إلى العرب فى "مكة".. وأسرَّ واحد من أهلها أمرًا.. ورحل إلى "صنعاء" ليُمضى ما أسرَّ، ويُنجز ما نوى!!

وذات يوم، دخل راعى الكنيسة التى بُنيت من الرخام المجزَّع، والحجارة المنقوشة بالذهب.. دخل كنيسة أبرهة هذه.. فإذامنخراه يمتلآن برائحة كريهة إلى حد لا يُطاق .

ولا بد أنه أغلق منخريه تمامًا، حين راح يُجول فى رحاب الكنيسة باحثًا عن مصدر هذه الرائحة الخبيثة.. وأخيرًا وجدها..

وضرب صدره بيده، وهو يقول: لقد فعلها المكىُّ اللعين الذى تركته يبيت هنا الليلة، رأفة به وإشفاقًا عليه ..

ولم يشأ أن يزيل الخبث المكتوم حتى يُطلع "أبرهة" على هذا الحدث..!!

وحين علم أبرهة أن الفاعل رجل من عرب مكة جاء ليقدم إليه هذه

الهدية المتواضعة"!!" جزاءً وفاقًا على نواياه العدوانية تجاة الكعبة، وتجاه بيت الله الحرام..

حين علم بهذا، قرر فى لحظة غضب وسفاهة أن يغزو "مكة" ويهدم كعبتها وبيتها الحرام!!

وفى طريقه وجيشه معه إلى مكة خرجت له قبائل من العرب، كانت تقيم بأرض خثعم، لتردَّه عن الكعبة والبيت الحرام، فهزمها، وأسر شيخها وقائدها..

وعند وصوله الطائف خرج له رجال "ثقيف" وعانفُوه القتال.. لكنه هزمهم، وانطلق كالإعصار نحو "مكة".. وعند مشارفها أرسل مبعوثًا حمَّله رسالة إلى سيد البلد وشريفها، يخبره فيها أنه لم يأت لحرب الناس.. إنما جاء لهدم هذا البيت.. وليس به حاجة إلى دمائهم إذا لم يعرضوا له بحرب!!

وكان قد سبق رسوله هذا، جماعة من فرسان جيشه حيث انتهبوا ما وجدوا من مال وإبل.. أصابُوا فيها مائتى بعير لسيد قريش "عبد المطلب بن هاشم" الذى دعاه أبرهة للقائه..

ولم يكد يراه حتى أجلّه، وأعظمه، وأكرمه.. وسأله عن طريق ترجمانه أن يطلب ما يشاء!!

وأجاب سيد قريش: عن حاجته أن يردَّ الملك للناس ما انتهبه جنوده، ومنها مائتا بعير له .

وحين رأى دهش "أبرهة" من اهتمامه بإبله وإبل الآخرين، دون أن يذكر البيت الحرام بكلمة، أطفأ دهشته هذه بكلماته المأثورة: "أما الأبل، فهى لى.. وأما البيت، فله رب يمنعه ويحميه"..!!

ورجع "عبد المطلب" إلى قومه، داعيًا إياهم أن يخرجوا من "مكة" وأن يتحرَّزُوا فى شعف الجبال والشِّعاب.. ثم مضى إلى الكعبة وأمسك بحلقة بابها،

وراح ينادى ويُناجى ربه الذى كان "الحُنفاء" يبشرون به ويهجُرون الأصنام إليه، ويقول:

لا هُمَّ إن العبد يمنع	رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب	وعابديه اليوم آلك
لا يغلبنّ صليبهم	ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا	فأمر ما بدالك

قال ذلك "عبد المطلب" سيد قريش، وجَدُّ "محمد" ﷺ الذى ستشهد هذه الأيام ميلاده.. ثم انطلق ومن معه من قريش إلى شعف الجبال مُتحرِّزين فيها، ومنتظرين أمر الله فيهم وفى بيته الحرام، وفى هذا الغازى العنيد والأثيم..!!

كان يتقدم جيش أبرهة فيل ضخم يُثير الرعب والفزع فى الأنفس والعزمات..

وما لبث الفيل أن برك فى هجوع وخُشوع، وراحوا يضربونه فى عُنف لكى ينهض فأبى.. وأدخلوا المحاجن فى مراقه وأسفل بطنه وهو يأبى..!! ثم أداروا رأسه صوب اليمن فقام يُهرول.. ووجوه ناحية الشام فانطلق مهرولاً.. ثم ناحية المشرق فكان أسرع هرولة.. ثم عادوا به صوب البيت الحرام فبرك وأخلد إلى الأرض وكأنما شُدت قوائمه إليها بسلاسل مُوثقة غِلاظ..

وفجأة ملأ الفضاء فوق رءوسهم بأفواج من طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.. لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وسقط صريعًا فوق التراب والرمال!!

وولُوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها..

وأمامهم قائدهم التعس ـ أبرهة الأشرم ـ الذى لم يك يبلغ "صنعاء" حتى نفق بعد أيام .

كانت الحجارة فى مثل حجم حبات الحمص والعدس، خيبت فألهم. وأطاشت سهامهم، وحوّلتهم إلى صرعى ومرضى هالكين.

لماذا أفضنا فى ذكر هذه الواقعة؟؟

لأنها الإرهاص " الذى نختاره من بين ما قيل من إرهاصات أخرى كِثار..

ففيها من الصدق التاريخى ما يشجُب كل إعراض عنها، لا سيما، وقد توَّج القرآن العظيم هذا الصدق التاريخى بإحدى سُوره القصار، والمسماة "سورة الفيل".. وذلك حين اصطفى الله "محمدًا" ﷺ رسولا، وراح يُصبره على عنت قومه وشنآنهم، مذكرًا إياهُ بنعمته السابقة على أهله.. وبنقمته الماحقة للغزاة الآثمين، فقال سبحانه فى كتابه المنزل عليه:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ .. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ .. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ .. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ .. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

"سورة الفيل"

فى شهر المحرم من ذلك العام، كانت غزوة أبرهة الفاشلة.

ويشاء الله فيما بعد، أن يكون "المحرم" بالذات هو الشهر الذى يستهلُّ به المسلمون عامهم الهجرى المتساوق عبر العصور والأزمان ..!!

وفى ذلك العام أيضا ـ عام الفيل ـ استقبل شهر ربيع الأول، فى التاسع منه، وقيل فى الثانى عشر من أيامه الغُرّ والذى يوافق فى التاريخ الميلادى العشرين من إبريل عام خمسمائة وواحد وسبعين.. استقبل ـ ابن البشرية البار ـ وطفلها العظيم..!!

الطفل الذى سيقود طُفولته، الرجل الكامن فيه..!! الطفل الذى سيقول

"الرجل الكامُن فيه" : أنا لم أخلق لهذا.. حتى حين يدعوه لِدَاتُه وأترابه إلى لهو بريء..!!

والطفل الذى لن يجد ـ حين يفدُ إلى الحياة ـ أبا يُناديه فى براءة الأطفال وحاجتهم إلى الحنان، قائلاً: يا أبى!!

ذلك أن أباه لقى ربه، وأمه حامل به.. وبعد ست سنوات من مولده سيفقد أمه.. تُرى، هل أراد الله له هذا اليُتم المبكر ليبادر "الرجل الكامن فى الطفل" إلى التجلىِّ والظُّهور والهيمنة ..؟؟

على أية حال، فالأخبار الوثيقة عن طُفولته، تُرينا فيه "رجولة" مبكرة تزدان بما لا عهد للأطفال به ـ مهما سَموَا ـ من أناة، وحلم، وتَرفُّع، واتزان.

وما كان جده "عبد المطلب" البعيد النظر، والثاقب الفكر، والحائز لقدر كبير من نور البصيرة، وشفافية الروح.. ما كان ليحتفى به كل تلك الحفاوة، ولا ليعتزَّ به كل ذلك الاعتزاز، ولا ليصطحبه إلى حيث يوم من مجالس السادة والأشراف، ولسانه يردد ـ دومًا ـ فى زهو وشرف عبارته المأثورة: "والله ليكونن لابنى هذا شأن"..

أقول: ما كان "عبد المطلب" ليهتم بحفيده "محمد" ﷺ كل هذا الاهتمام الذى لم يمنح معشاره أحدًا من بقية الأحفاد، لولا ما كان يحمل الطفل الحفيد من مخايل النجابة، وأمائر التفوق، وملامح مستقبل واعد وعظيم..!!

وحين يرحل الجدُّ الحانى عن الدنيا، وينتقل الطفل إلى دار عمه "أبى طالب" وكفالته.. نجد العم لا يقل عن الجد الراحل فى افتتانه بشخصية ابن أخيه، واحترامه "الرجل الكامن فيه"..!!

وينضج هذه الرجولة الكامنة كُمُون الماء فى العود الأخضر، والسارية كذلك.. تحول الطفل سريعًا إلى فتىً يملأ الأعين جماله، والأفئدة جلالُه..!! فكيف

نتصور هذا الفتى الدَّراج الماجد..؟؟

لنشاهد الآن الصورة التى رسمها بقلمه "أمير على" العالم الهندى المسلم فى كتابه القيِّم: "روح الإسلام":

يقول: "نستطيع أن نتصور ذلك الفتى بعينيه الحائرتين، مُطرقًا، مفكرًا، مهمومًا، وكأنه يستشف حجب الغيب، أو تنفتح له نافذة ضيقة على مهام المستقبل..

نتصوره، وهو يروح ويغدو فى رفق بين أفراد عائلة عمه المتواضعة، أو يتجه إلى الصحراء، فيملئ وجهه فى جمال وجه الطبيعة..

كان ذلك الفتى رقيق الحاشية، حلو الشمائل، مُرهف الحس تجاه آلام الناس.

وكان ـ ابن الصحراء ـ هذا، الطاهر الضمير محبوبًا لدى كل من يتصل بهم.. ولدى عمه على الخصوص، إذ نشأ بين "أبى طالب" و "محمد" ﷺ ذلك العطف الأبوى الحميم الذى لم يذكر التاريخ له مثيلاً..

"لقد شقَّ الملائكة صدره، وملأوا بالنور قلبه"..

كان الفتى المأمول ميمون النقيبة، سعيد الطالع.. سعدت بطالعه وهو رضيع ـ مرضعته "حليمة السعدية" ـ سعدت به سعادة غامرة، صورتها فى شهادة ناطقة وكلمات صادقة ..

وسعدت به قريش، وهو فتىً غرير ونضير.. حين كان عمه يستسقى به فضل الله وغيث السماء.. ولنصغ لشاهد عيان رأى أحد تلك المشاهد، فقال: "قدمت مكة وهم فى قحط.. فقالت قريش: يا أبا طالب ، أقحط الوادى، وأجدب العيال، فهلُمَّ فاستسق لنا.. فخرج أبو طالب ومعه غلام وجهه كأنه شمس تجلت عنه سحابة قتماء.. وحوله أُغَيْلمه.. فأخذه أبو طالب، وألصق بالكعبة ظهره.. ولاذ بأصبعه الغلام.. وما فى السماء حينئذ قزعة ..

وفجأة أقبل السحاب من هنا.. ومن هناك.. حتى أغدق واغدَوْدَق.. وانفجر الوادى.. وأخصب النادى والبادى .."

وهكذا كان الغلام الصغير "محمد" ﷺ كما سيصفه عمه "أبو طالب" فيما بعد، فيقول عنه :

وأبيض، يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إذا كانت الطفولة ـ أية طفولة ـ تحمل فى باطنها المسْتَسِرّ، وخبئها المستكنَ، وبذور نشوئها ونمائها، ما يومئ إلى مستقبلها عبر تطوُّر مُوَاتٍ ومحكوم، فإن طُفولة "محمد" ﷺ ويفاعته، لم يكونا إلا "طليعة" صادقة ومُشرقة، لرجولته الوافدة، والواعدة.

كما ستكون "رجولته" بشيرًا صادقًا ومتألقًا لرسالته المقبلة ـ حيث يصطفى الله من رسله من يشاء ـ وحيث يَكْمُن فى "محمد الرجل" ـ "محمد الرسول" عليه صلوات الله وسلامه.

* * *

لقد كانت أم "الإسكندر الأكبر" تختصه دائمًا بهذه الدعوة العجيبة: "اللهم ارزق ولدى" حظًا" تُسخر له عقول الرجل.. ولا ترزقه "عقلاً" يُسخر لحظوظ الرجال..!!

وهى دعوة كما نراها مفرطة فى الأنانية !! ومع هذا فكأنما صادفت مرة أو مرات بابًا مفتوحًا من أبواب السماء. فقد رُزِق ابنها الإسكندر ـ فعلاً ـ حظًا سُخرت له عقول الرجل..!!

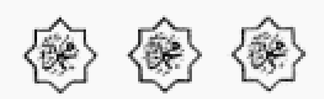
ولكن، ماذا تُفيد البشرية من الباحثين عن حظوظهم والراكضين وراء

طموحهم الشخصى، ومجدهم المرغوب؟!

غدًا، يجيء "محمد" ﷺ .. لتجد الحياة فيه حظَّها وعقلها معا.. وتجد فيه دُعاءها المستجاب الذى طالما قرعت به أبواب السماء، وألحت به على ذى العظمة، والجلال، والكبرياء.. كى يُعجل لها بالمنقذ الذى سيكون يوم يجيء أحلامُها ملء يقينه..

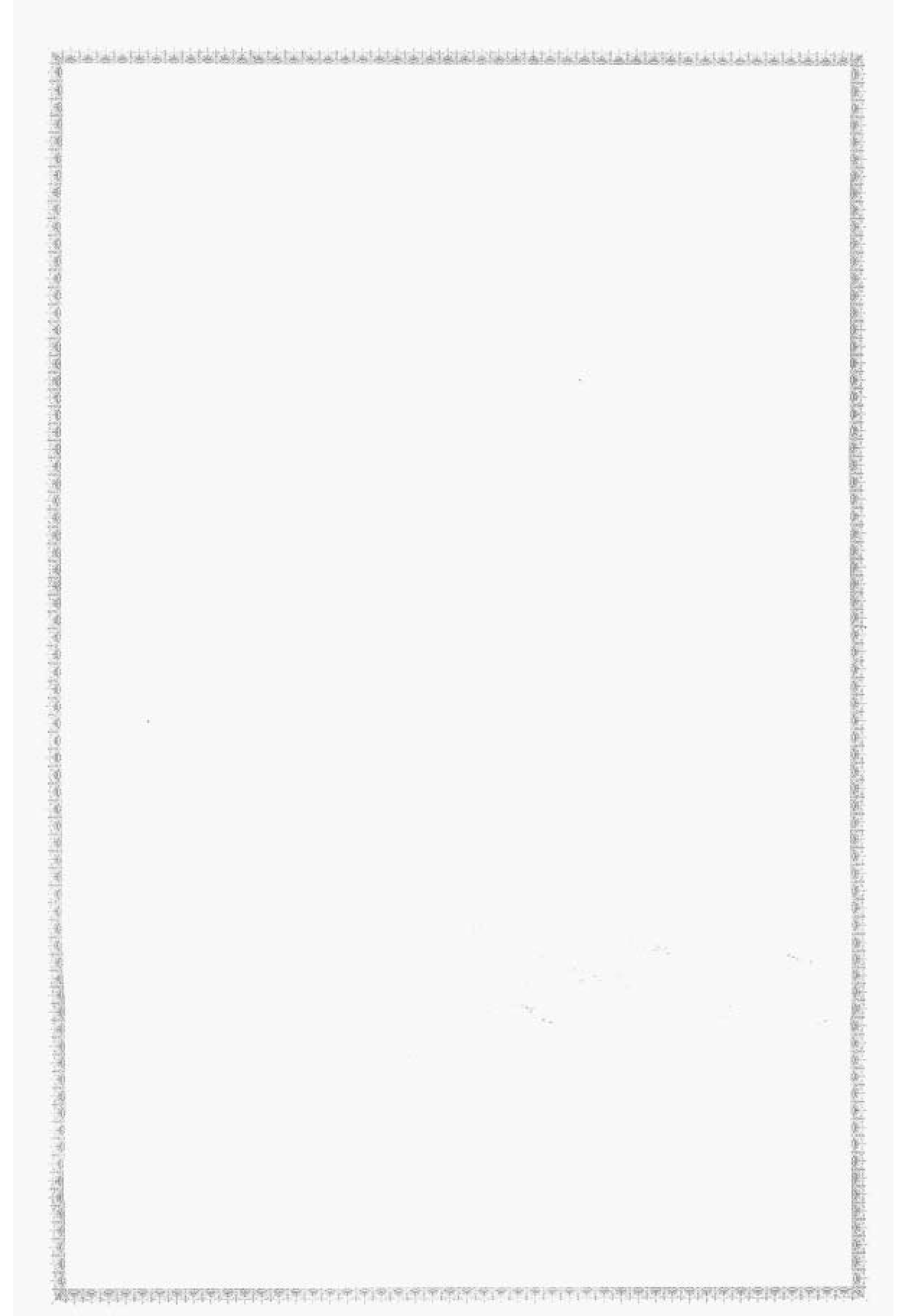
وأشجانها أطياف شجونه..

وحُلول مشكلاتها، مطْويَّاتٌ بيمينه..!!



الفصل الخامس

الرسول الكامن في الرجل !!



ما كان يدرى ما الكتاب ولا الإيمان..

ولم يكن اصطفاء الله له، قد وضح فى نفسه، ولا استبان له بصورة من صور اليقين أنه مُدَّخر لرسالة عظمى سيختم الله بها الدين والمرسلين.

بيد أنه كان يملك إحساسًا عميقًا بأن أمامه دورًا كبيرًا ينتظره على شوق.

ماذا سيكون هذا الدور؟؟

مصلحًا..؟ قائدًا..؟ زعيمًا..؟

ليس يدرى بعد.. لكنه يدرك تمامًا أنه لم يخلق لما خُلق له الكافة من الناس!!

أفلم يقل من قبل وهو طفل صغير لأترابه حين دَعَوه إلى لهو برىء: "أنا لم أخلق لهذا"..؟!

* * *

لقد مُنِحَ من السَّجايا الفارهة، ومن حميد الخصال، ومن رفعة النفس، وطهر السلوك، ونقاء الضمير، ما جعله مَهْوَى أفئدة قومه جميعًا، وموضع احترامهم، حتى عقدوا له إمارة الصدق والأمانة، فلقَّبوه بـ "الصادق الأمين".. كان يسلك سلوك المرسلين، دُون، أو قبل أن يكون واحدًا منهم.

وكانت أيام حياته، وسنوات عمره نسيجًا من النور..!! لم يكن يدرى أن ثمة إرادة عليا تحدُو خُطاه، وترعى مسيرته، وتقودُه فى الطريق الذى يلتقى فى نهايته بما أعدَّته له هذه الإرادة من دَوْر يضىء به من جديد ظُلمات الحياة..!!

لم يكن يرى "الرسول" الكامن فى "الرجل".. لكنَّ وعيه، وقلبه، كانا فى

حالة "حُضُور" كامل تِجَاه مأساة الإنسان!!

ولقد تمثلت هذه المأساة فى الكثير من حماقات الناس، وفى استعباد الأقوياء الضعفاء.. وامتهان الأغنياء الفقراء وفى الأعراف الفاسدة التى كانت تجعل الظلم هو القاعدة، أما العدل فشَاذٌ ونشاز.. وفى التقاليد العفِنة، والرُّؤى الغبيَّة، والجهالات الموروثة، والسلوك الملتاث..!!

وكان أكثر ما يُقلقهُ ويُؤرّقه، تلك الصفوف المتحلقة حول حجارة مرصوصة تُشكل أصنامًا صُمًّا، وبُكْمًا، وعُميًا ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ ..!!

* * *

أين التوحيد الذى هتف به من قرون بعيدة، وفى هذا البلد بالذات ـ مكة ـ أبو الأنبياء، وخليل الرحمن "إبراهيم".. عليه السلام..؟!

لقد هتف من قديم بالحقيقة التى التقى بها بعد طول بحث، وإمعان نظر، وقراءة فى السماء، وتقلُّب بين النجوم وآياتها.. والكون ومعجزاته.. فهتف فى أعماق قلبه الذَّكىّ: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.. ولقد تركها باقية فى عَقِبه، مُدوية فى آفاق الجزيرة الواسعة.. فأين ذهبت هذه الحنيفية السّمحة، والمؤمنة، والموحّدة..؟

هل ضاعت، أو تاهت فى زحام الوثنية والشّرك..؟!

لقد كان هناك هُداة يبزُغون بين الحين والحين، يُلوِّحون براية "إبراهيم" ويدْحضون بأصوات عالية ما كان قد تغشّى حياة قريش فى مكة، والعرب كلهم فى شبه الجزيرة العربية من وثنية وشرك..

كان منهم من سبق الرسول الكريم ﷺ بعشرات السنين، وربما بمئاتها.. ومنهم من كان إرهاصًا بين يدى فجر الطالع القريب.

فمن الأولين ـ سُويد بن عامرَ المصطلقى الذى جهر بعقيدة البعث، ويوم الجزاء.

وعامر بن الظَّرِب الذى كان يقول لقومه:

"إنى ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه.. ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا.. ولا جائيًا إلاَّ ذاهبًا، ولو كان الذى يميت الناس الداء، لكان الذى يحييهم الدواء..!!

وكان منهم: المتلمس بن أمية الكنانى الذى كان يتوسط القرشيين عند الكعبة التى جثمت حولها الأصنام ويَصْدح فيهم بقوله: "أطيعونى ترشُدُوا.. لقد اتخذتم آلهة شتَّى.. وإن الله ربكم، وربّ ما تعبدون"..

وكان من بينهم "زهير بن أبى سلمى" يمسك أوراق الشجيرات التى اهتزت خَضرة، بعد أن كانت هامدة يابسة ويقول: ـ "لولا أن تَسُبَّنى العرب لآمنت أن الذى أحياك بعد جَفاف، سيحيى العظام وهى رميم"..!!

كان هؤلاء، وآخرون معهم، يستشرفون الحقيقة، ويطالعونها ببصائر مُضاءة.. لكنهم لم يظفروا بالاصطفاء ولا بالرسالة اللذين سيظفر بهما "محمد" ﷺ القادم بعد حين وكذلك كان من أنماطهم الرفيعة، نفر كريم ظهروا قبيل البعثة المحمدية.. بل كان منهم من عاصر الرسول قبل بعثته.. فهذا "أبو قيس بن أنس" اعتزل قريشًا وأصنامها.. واصطنع له فى داره مسجدًا صغيرًا، لا يدخله طامث ولا جُنب، وقال: أعبد رب إبراهيم..

ولقد عاش حتى بُعث الرسول ﷺ فأسلم معه..

وكان هناك ثلاثة آخرون من هؤلاء "الحُنفاء" انسابت من أفئدتهم الضارعة كلمات التوحيد كأنسام الربيع وسط الهجير الوثنى المشبوب..!! وكأنما كانوا

جميعًا ـ السابقون منهم واللاحقون ـ إرهاصًا بالدين المقبل، وبالرسول القادم الذى سيعيد راية الحق إلى مكانها، ويُسوى بالوثنية التراب..!!

(راجع كتابنا "خلفاء الرسول"..)

لم يدَّع أحد من هؤلاء، ولا من أولئك الرسالة.. فهل سيدّعيها "محمد" حين يجيئ..؟!

* * *

هذا الرجل يملأ "مكة" عبيْرُه.. وأينما سارت به خُطاه فالخير، والحق، والهدى فى ركابه!!

وإنه ليحمل ضميرًا يميز به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.. ضميرًا مُضاءً، ومُضيئًا يبعث فيه إحساسًا غير مألوف.. إحساسًا بنور غير منظور يضيء عقله، وقلبه، ورُؤاه..!!

ويُرسل ذاكرته إلى سنوات العمر السالفة بعيدها وقريبها قاصيها ودانيها. فلا يكاد شيء ما يناديه إليه.. إذ أن حياته الظاهرة والمنظورة، لم تكن أيامها تنطوى على مشاهد غير مألوفة فى حدود ما استمسك به، وعُرف عنه من طُهْرٍ ونُسك، وأمانة وصدق..

ولكن لعلّه استأنى وتوقف مع ذلك المشهد بالشام حين صحب عمه "أبا طالب" فى إحدى رحلاته التجارية.. ذلك أنه حين نزل الركب بـ "بُصْرَى" وهى التى تسمّى الآن "حُران".. اتجهوا لزيارة "بحيرى الراهب" الذى كان يتعبد فى صومعة من صوامع الناسكين، ويقضى بها حياته فى ظل ما تُفيئُه على العابدين سكينةُ الإيمان وبُردُ اليقين..

وقريبًا من صومعته، نزلوا تحت شجرة يتفيأون ظلالها ولعلّ ظلها الظليل لم يتسع لهم جميعًا، فاستأخر الفتى الجليل إلى حَوافِيه، مُفْسِحًا المكان لآبائه الكبار..!!

وشيء ما شد بَصر "بحيرى الراهب" إلى الغلام الوضيء والمضيء، فرأى عجبًا.. رأى أغصان الشجرة وقد تَهصَّرَتْ، وتدلَّت على "محمد" ﷺ حتى غطته بظلها..!! ورأى "بحيرى" أن يسبُر أغوار الغلام بعدما رأى من عجب أمره، فدعا رجال الرُّكب إلى وليمة وطعام.. وحين تحلَّقوا حول مائدته افتقد الغلام الأثير لديه والذى من أجله استضافهم، حتى يجد فرصة سانحة ليبلُو أمره، ويستبطن خبره..!!

هنالك قال لهم: لا أريد أن يتخلف أحد منكم عن طعامى.. فأجابوه: ما تخلف عنك أحد إلاّ غلام، هو أحدث القوم سنًا، ولقد خلفناه فى رحالنا.. قال لا تفعلوا، ادعوه ليحضر الطعام معكم..!!

وندع "ابن هشام" أو "ابن إسحاق" أو هُما معًا يرويان لنا بقية النبأ العظيم:

".. فقال رجل من الركب: واللات والعُزى إن كان لَلُؤْمٌ بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا.. ثم قام إليه واحتضنه، وأجلسه مع القوم.

"فلما رآه "بحيرى" جعل يلحظُه لحظًا شديدًا، وينظر فى أشياء فى جسده، قد كان يجدها عنده من صفته.. حتى إذا فرغ القوم من طعامهم، وتفرقوا، قام إليه "بحيرى" فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعُزى إلا ما أخبرتى عما أسألك عنه؟ وإنما استحلفه "بحيرى" باللات والعُزى، لأنه سمع القرشيين يحلفون بها، أو لأنه أراد أن يختبر أعماقه.. فأجابه "محمد" لا تسألنى باللات والعُزَى، فوالله ما أبغضتُ شيئًا قط بغضهما..!!

"فقال له ـ بحيرى ـ فبالله إلاّ أخبرتنى عما أسألك عنه.. فأجابه الغلام: سَلنى عما بدا لك "فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه، وهيئته وأموره..

فجعل يخبره، فيوافق ذلك ما عند "بحيرى" من صفته.. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبُّوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده..!!

"فلما فرغ أقبل على عمه "أبى طالب" وسأله: ما هذا الغُلام منك؟؟

قال: ابنى

قال بحيرىّ: ما هو بابنك.. وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا..!!

قال: فإنه ابن أخى..

قال: فما فعل أبوه؟؟

قال: مات ، وأمه حُبْلى به..

قال بحيرى: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده.. واحذر عليه "يهود"!!، فوالله لئن رأوه، وعرفوا ما عرفت ليبْغُنَه شرًا.. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.."!!

* * *

نقول: لعلَ هذا المشهد الذى لا يجد العقل السَّديد أى حرج فى تقبُّله، كحقيقة تاريخية، روى التاريخ منها الكثير، ولا تزال نظائرها تصدع وتظهر، حتى فى عصرنا هذا، مُرْهِصة بقدوم عظيم، ومُبشرة بمقدم رائد جديد من رُواد الحياة الأفذاذ.. أقول: لعل هذه الواقعة كانت ـ أكثر من سواها ـ تدور عليها خواطر "محمد" الرجُل، فتوحى إليه بأنه رُبما كان فى انتظاره مهامٌ جليلة، ودور عظيم..

وعلى أية حال، فقد كان الاحترام الفريد الذى يحمله له قومه يتنامى كل يوم، ويدعوه إلى التحدث مع نفسه فى خلواته.. لا سيَّما تلك التى كان يقضيها وحيدًا فى غار حراء..!!

ولا نحسب أنه ينسى، أو يتناسى، ذلك اليوم الذى يتلألأ كألمع دُرة فى تاريخه كرجل.. قبل أن يصبح الرجل رسولاً..

فحين كان يجتاز الخامسة والثلاثين من عمره المَجَّد، اجتمعت "قريش" لتجديد بناء الكعبة ـ إذ كانت يومذاك "رَضْمًا" أى حجارة رصَّت بعضها فوق بعض من غير مِلاط يُمسكها.

ولقد تردَّد زعماء قريش طويلاً امام هدمها لبنائها من جديد. وارتعدتْ فرائصهم، وهم يقتربون منها بمعاولهم ليبدأوا عملية الهدم، حتى صاح فيهم أمثلهم طريقة، وأشجعهم رُوحًا، وتقدم بمعوله بادئًا الهَدْم، حتى إذا رأى الآخرون أنه لم يَمْسسه سوء تشجعوا، وتنادوا لإنجاز مهمتهم الماثلة.. ووصلوا بالبناء إلى موضع الركن، فاختصموا فيه..

كل قبيله تريد أن تنفرد برفعه ووضعه فى مكانه.

واشتَجَر النزاع، واحتدم الصراع.. وذهبت أكثرية هذه القبائل إلى أحيائها، ثم عادت مُدجَّجة بأسلحتها.. وجاءت قبيلتان بَجفْنة مملوءة دمًا، وادخلوا أيديهم فيها مُتواثقين ومتعاهدين على أن ينفردوا برفع "الحجر الأسود" إلى مكانه، أو فليموتوا دون ذلك.. وسمُّوا ذلك اليوم "لَعَقَة الدم"..!!

لبث الصراع خمس ليال.. ثم عادوا فاجتمعوا فى المسجد الحرام، والأزمة لم تُسَوَّ بعد..

ونهض بينهم "أبو أميَّة بن المغيرة" من بنى مخزوم وكان أكبر القرشيين سنًا واقترح عليهم أن يُحكموا أوّل داخل إلى المسجد..!!

ومَرت دقائق صامتة، والأبصار معلقة بالأبواب.. تُرى من سيكون هذا الذى ستختاره المقادير ليحسم هذا الخلاف المنذر والرهيب..؟!

وفجأة أطل "محمد" ﷺ ونوره يسعى بين يديه.. وصاح المجتمعين "هذا الأمين.. هذا محمد.. قد رضيناه حكمًا"!!

واستنبأهم الخبر، وكانت قد ترامت إليه من قبل أخبار النزاع الذى ظل مَشبوبًا خمسة أيام.. ولم يفكر طويلاً فيما يصنع.. فقد تقدمت بديهته المشرقة بأسعد الحلول..

دعا المجتمعين أن يأتوه بثوب.. فأتوه بثوب.. فأُتى به، وأخذ "الحجر" بيمينه، فوضعه فى الثوب، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب، ففعلوا.. ثم قال: ارفعوه إلى أعلى، فرفعوه.. حتى إذا بلَغُوا به موضعه، تناوله بيديه الكريمتين، وبَوّأه مكانه، ثم بنى عليه..!!

إذا قلنا إن "الرسول" ﷺ الكامن فى "الرجل" كان بطل هذا الموقف، لم نكن عن الحقيقة معرضين.. ولَكُم يسعدنا أن ننقل هنا أبياتًا عذبة من الشعر لشاهد عَيان رأى بعينيه جلال الموقف وسَناه ـ ذلكم هو "هبيرة بن أبى وهب المخزومى" فلْنُصغ إليه: ـ

تشاجرت الأحياء فى فصل خُطة
جرت بينهم بالنَّحس من بعد أسعد
تلاقوْا بها بالبغض بعد مودةٍ
وأوقد نارًا بينهم شرُ مُوقِد
فلما رأينا الأمر، قد جَدَّ جِدُّه
ولم يبق شىء غير سَلِّ المهند
رضينا، وقلنا: العدل أول طالع
يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد
فقلنا: رضينا بالأمين مُحَمَّد!!

* * *

هذا، رجل كانت الأقدار تعدُّه، وتختصُّه بحمل تبعات الغد.. الغد الذى لن ينتهى بين عَشيَّة وضحاها. بل سيمتد ويطول حتى يرث الله الأرض ومن عليها..!!

هذا، هو "محمد" ﷺ.. يعزف فى إباء وفهم عن معتقدات قومه الباطلة الهازلة.. ويتردد إلى غار هناك فى أعماق الجبل، يُنصِتُ فيه إلى هَمْس الكون كله، وإلى رُؤاه المُجَنَّحَة فى ملكوت الله.. ويتحدث مع نفسه ومع أشواقه حديثًا مُعطرًا بالذكاء، وبالوعى الباطنى، والإلهى المُضاء..!!

ثم يغادر الغار إلى الحياة الصاخبة، مُؤديًا فيها دوره وعمله فى طهر وعَناء..

أكانت أحاسيسه ومشاعره على موعد مع أمْر مَّا، قد اقتربت أيامه، وتهيأت أعلامُه..؟؟ أكان "الرسول" ﷺ الكامن فى "الرجل" على وشك أن يُؤْذَن بالظهور..؟

هل انتهى دور الإعداد والتهيئة، وأقبل دور الإمداد والرسالة الخالصة..؟!
ها هو ذا يكثر من اللُّجوء إلى غاره الحبيب.. وكأنه على موعد هناك مع مفاجأة لا يعرف هَوِيتها، ولا يدرك حقيقتها..!! إن كل شىء فى داخله يتوهج ويتألق.. ورُوحُه الطُّلَعة تتواثب بين جوانحه.. ويبدو قلبه الكبير، وكأنه يريد أن يطير..!!

وبسمعه المرهف المتحفز، قد أعرض عن الكلمات والإشارات، وأوصد جميع نوافذه إلا نافذة واحدة اقترب منها وألقى إليها نفسه فى تجدُّد وتبتُّل، وإنصات وإصغاء.. لكأنه على موعد مع كلمات سيتلقّاها من الله..!!

* * *

هذا، فى داخل الغار.

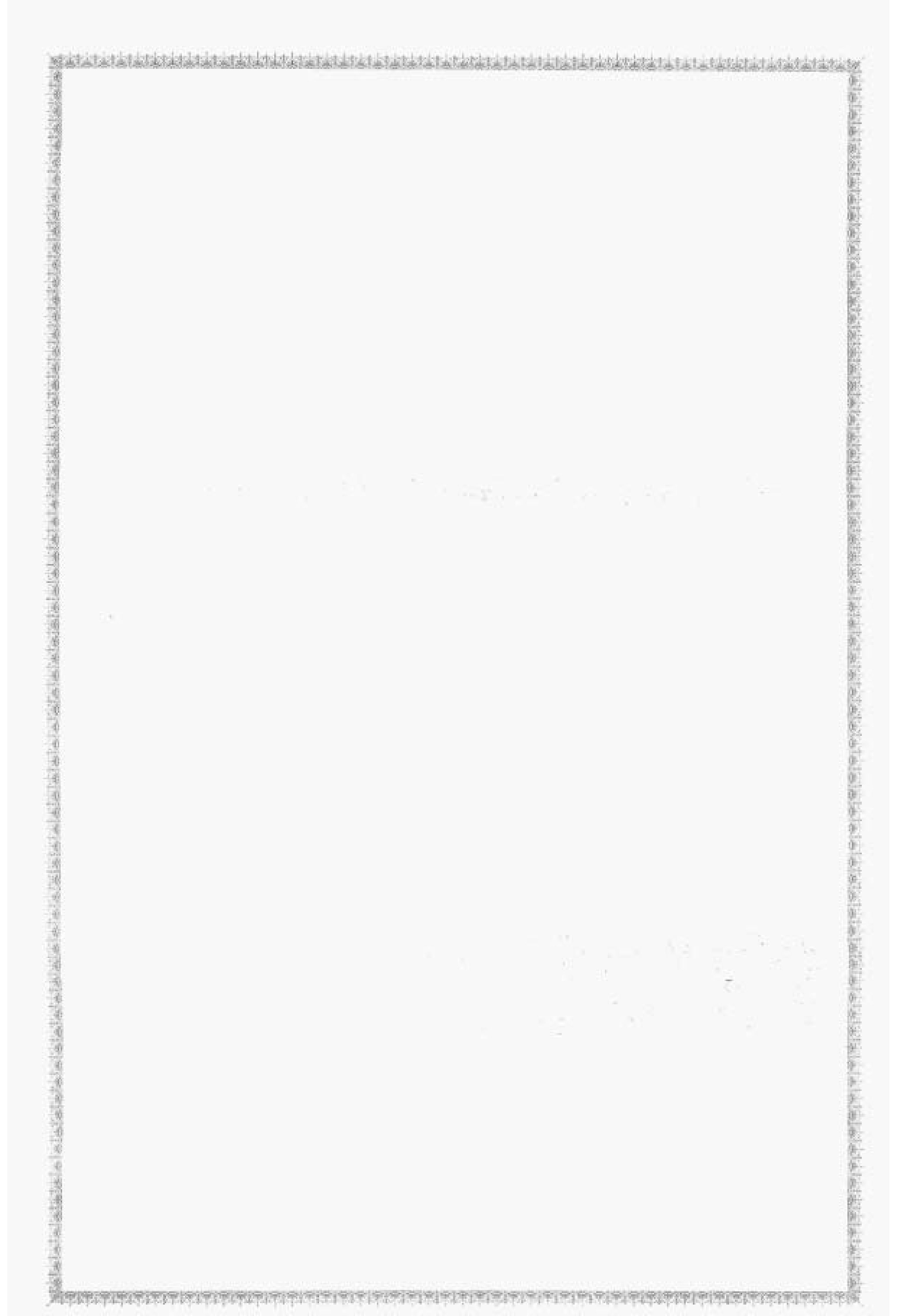
أما خارجه، فقد بدت الحياة وكأنها تحوَّلت بكل ما فيها إلى مهرجـان حافـل ورائع تصدح من خلاله، وتهتف:

ـ أهلاً بمقدم الرسول ﷺ ..!!



الفصل السادس

وجاء يوم الشروق



ليس من مَهامِّ هذا الكتاب المتابعة التفصيلية لحياة الرسول ﷺ، إذ أن ذلك مهمة المؤرخ وأسفار التاريخ.

وأنا هنا لا أؤرِّخ الحياة العظيمة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين.. إنما أحاول فى تواضع وحياء أن أقترب من مطالع النور الماثلة فى تألُّقات هذه الحياة وفى سُمُوقِها وجلالها..

أحاول أن أجمع الذين سيطالعون هذه الصفحات بالحقيقة المسفرة كضوء النهار.. والهاتفة بصدق "محمدٍ" ﷺ وصدق رسالته. والتى تنادى الناس ـ جميع الناس ـ بصوت صادع وجهير: إن "محمدًا" ﷺ رسول الله إلى الناس كافَّة.. وإن الصدق والحقيقة لا يجدان نفسيهما، ولا يحققان ذاتيْهما، بمثل ما يجدان وما يُحققان فى نبأ هذا الرسول الصادق والأمين..!!

* * *

ولقد مررنا سِراعًا بإرهاصات طُفولته ويَفاعَتِه.. وبرُجولة شبابه، واستهلال رجولته.. حيث رأينا أيام اليافع، والشاب، والرجُل فيه تتنقل فيها وبها أطوار حياته طاهرة وباهرة وعظيمة..!! حياة تحفل سريرتها المستكنَّة برُؤى طموحة فاضلة، وهُيام بالإسهام بلا حدود فى إرجاع الخلق إلى الربّ.. ووضع الآصار والأوزار عن البشر الحيارى والتائهين، والمتخبطين فى الظلمات، تنتظرهم فَجاءَةُ النِّقْمة، وشِقْوَة المصير..!!

من أجل ذلك كان يأوى إلى "غار حراء" ليتأمل وليهيىء سمعه، وقلبه قبل مسمعه، لتلقى الصوت الخالد.. صوت الحقيقة، والهدى، والخير، الذى لم يَغِبْ عن دنيا الناس لحظة.. يُلْهم الرُوَّاد الذين يسيرون فى الدروب غير المطروقة. مُمهِّدين الطريق، وغارسين المشاعل أمام البشرية السائرة، والمسافرة..

بيد أن الصوت الخالد هذه المرة، كان أعمق وأوثق من كل ما سمع الرواد من أصوات، وما تلقَّوا من إلهامات.. أجل ـ هذه المرة يختلف رنينهُ، وتتميز هويَّته.. فهو "وحى" لا "إلهام" وهو "جبريل" يتحدث.. وليست "خواطر" تتردد.. لقد آن للذى طال انتظاره، وطال قرْعُه الأبواب، وطال تقلُّب وَجْهِه فى السماء.. آن له أن يعرف أنه هو.. وليس أحدًا سواه..!!

هو، هو المدَّخر لحمل آخر كلمات السماء إلى الأرض..!!

وهو، هو ـ الذى بشرَّت به الكتُب، وتحدَّث عن قرب مجيئه الأنبياءُ، والحُنفاء..!!

وهو، هو ـ الذى سيحمل فوق كاهِله الوثيق تبعات دين ورسالة، ليْسًا إلى قومه وحدهم ـ كما كان شأن الأنبياء من قبله ـ بل إلى البشرية كلها.. ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ..

وهو، هو ـ من سيحمل النور الذى طالما بحث عنه فى توق عظيم.. وسعَى إليه فى شوق حميم..!!

وبعبارة واحدة ـ هو "محمد" رسول الله.. ونذيرُه.. وبشيره.. والداعى إليه بإذنه وسراجه المنير..!! فكيف تمت كلمة الله، وكيف ـ فى يوم شروق عظيم ـ تلقى كلمة الله، ووثيقة التكليف؟!!

* * *

من قبل، كانت الرؤيا الصادقة تملأ نومه بالبُشْريات.. فكان لا يرى رؤيا إلا صدقت وتحققت كانبلاج الصباح وضوء الضُحى.. لكنه اليوم. وفى السنة التاسعة بعد الستمائة للميلاد.. وفى الهزيع الأخير من إحدى ليالى رمضان، التقى أمين الأرض بأمين السماء..!! وجاءه الملك..!!

لن تستطيع الأقلام أن تُصَوِّر أو تتصور حقيقة ولا هوية ولا أسرار تلك اللحظات التى شهدت ـ لأول مرة ـ لقاء سفير السماء بالأمين "محمد" ﷺ الذى سيصبح بدءًا منها ومنه "رسول رب العالمين"..

فلنُجاوِزْها إلى الحوار المثير الذى دار بين الملك والرسول فى مثل سُرعة الضوء.. وهو حوار يرويه الرسول ـ عليه السلام ـ بنفسه قائلاً:

".. فقال: اقرأ.. قُلت: ما أنا بقارئ.. فأخذنى فغطَّنى ـ ضمه بقوة واعتصار ـ حتى بلغ منى الجهد!! ثم أرسلنى ـ تركنى ـ وقال: اقرأ.. قلت: ما أنا بقارئ..

فأخذنى وغطَّنى الثانية!! ثم قال: اقرأ.. قلت: ما أنا بقارئ.. فأخذنى وغطَّنى الثالثة!! ثم أرسلنى، وقال اقرأ..

قلت: وما أقرأ..؟؟ فقال:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ..

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ..

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ..

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ..

عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.. ﴾

أَهَلَّ ـ إذن ـ يوم الشروق والاصطفاء.. ودقَتْ ساعاته الصادحة، وبُشْرياتُه المانِحَة..!!

* * *

والآن، أرجع والقارئ معى إلى كلمات كنت قد أودَعْتُها كتابى: "عشرة أيام فى حياة الرسول" الذى ظهرت طبعته الأولى فى مارس عام ألف وتسعمائة وسبعين..

أرجع إليها، لأنها لا تزال، وستظل تُمثل "رؤيتى" وتفسيرى، وانبهارى بيوم الوحى العظيم..

أعلنت السماء إذن مُختارها ومُصطفاها الذى طال ترقُّبه وانتظاره.. صدقت إذن كلمات الكتُب، ونبُوءات الحنفاء والقدّيسين..

وها هو ذا، فى مكان منعزل عن صخب الحياة، فى أعمق غور لأعلى جبل، حيث أوى إلى هناك ناسكًا طهورًا يضرع إلى ربه كى يدلَّه عليه، يهبط عليه سفير السماء فى جلاله، حاملاً نور الله إلى المتبتل الأواب، وحاملاً إلى البشرية وثيقة رُشد جديد سيكون إمامُها فيه وأستاذها ومعلمها هذا الإنسان الودود، حفيد إبراهيم، ودعوتُه وبُشراه..!!

تُرى لو لم يكن يوم الوحى هذا، بين أيام الدنيا، فأى مصير كانت البشرية ستُلاقيه..؟؟

إن الكلمة التى استهلَّ بها الوحى نجواه مع رسول الله ﷺ لتقدم لنا أروع وأجمع.. وأوجز وأنجز جواب..

فإذا كان العلم، جوهر كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه، وكوكبه..

وإذا كان الإسلام ـ فيما بعد ـ قد قدَّم للدنيا حضارة متكاملة تـدين لها كـل الحضارات التى جاءت بعده، حتى تلك التى استهدفته بشنآنها وعدوانها.

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك فى يُسر لون المصير الـذى كانـت البشرية ستلقاه وتتردَّى فيه لو لم يكن يوم الوحى.. يوم "اقرأ باسم ربـك"، يـوم "القرآن" و"محمد" و "الإسلام" بين أيامها، بل على رأس أيامها.

كذلك نستطيـع أن ندرك فى يسر، لمـاذا كانت أُولى كلمات الله إلى رسـوله "اقرأ"..

لم تكن "صَلِّ" و"صُمْ"، ولا "تعبَّد" بل كانت: اقرأ..

هذه "الكلمة" التى لخصت جوهر الإسلام ومستقبله..

فهو لن يكون دين تكريس دينى فحسب، بل ولا دين سلوك فحسب، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك "دين حضارة".. جاء ينشئ عالمًا جديـدًا بكـل مـا تحمـل كلمتا "عالم" و "جديد" من معنى ودلالة.

ولكى يستيقن الناس عبر الزمان كلـه أن هـذه الحـضارة المقبلـة هـى عطـاء السماء، فقد اختبر أستاذها وبانيهـا ذلـك الـذى لا عهـد لـه مـن قبـل بقلـم ولا بكتاب.. ذلك أنه لن يكون مخترعًا لهذا الدين ولحضارته.. إنما هو مُبلِّغ عـن الله.. ناقل عطاياه من السماء إلى الأرض.. ومن ثمَّ سيكون معه من المقدرة ما يغـير بـه كيمياء الزمن، وكيمياء البشر وكيمياء الحياة..!!

ومن يدرى.. فلعل الضمّات الثلاث الشديدة التـى ضـمّه الملـك بهـا حتـى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها، والذى وصفها الرسـول فـى حـديث آخـر قائلاً: "فغطنى حتى ظننت أنه الموت".

أقول: لعلها كانت إجراء مقصودًا لتغيير كيمياء جسده هـو ـ وتغـيير كيميـاء

روحه هو ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ حتى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التى أُفرغت فيهما ليحتملا عبء الرسالة وأهوال النضال.

ولعلّ انقطاع الوحى عنه بعد هذا اللقاء الأول لفترة بلغت سنوات ثلاثًا، كان إجراء ضروريًا؛ حتى يتمكن الجسد والروح معًا من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التى أفرغها الوحى فيهما، وحتى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية بذلك المدد العُلوى الذى نقلته إليه الضمات الثلاث الضاغطة التى احتواه بها ملك الله جبريل..

والآن، لنمضِ مع "يوم الوحى" فى بقيته المجيدة.

إن الرسول يغادر الغار مُسرعًا تغذّ الرهبة خُطاه، يسائل نفسه ما هذا الذى حدث فجأة وعلى غير انتظار..؟ ويلتفت وراءه.. وأمامه، وعن يمينه وعن شماله، فيطمئن إلى أنه وحده، وليس ثمت من يتبعه.. بيد أن الأفق يلتمع فجأة بضياء عجيب، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ليرى.. فإذا هو هناك يملأ الأفق فى جلال مهيب.. نفس الملك الذى كان من لحظات يملأ عليه غار حراء، وتمخر الرعدة العَذْبة جسده من جديد، ولا يدرى أيان يسير، فتتشبث قدماه بالأرض، وتستقبل أذناه هذا النداء:

"يا محمد! أنت رسول الله، وأنا جبريل"

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه، وتزداد قدماه التصاقًا بموطئهما كأنهما من الأرض بعض غراسها..!!

ويغيب الضوء، ويغيب معه مشهد الملك، ويستأنف الرسول سيره مقتلعًا من الرمال خُطاه..

ولا يكاد يبلغ داره، ويلقى زوجه "خديجة" حتى يُلقى نفسه فى حجرها

وبين يديها، وكل جسده يرتجف كالزلزال.

وتصغى "خديجة" لكلماته المترددة مع أنفاسه الوجلِة.. يصف لها ما حدث تمامًا كأنها تراه.

وتهتف "خديجة" وقد التمع وجهها الجليل تحت ضوء الأمل واليقين.

"أبشر يا ابن عَمّ، واثْبُت

فوالذى نفس خديجة بيده، إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة".

ويقول لها الرسول ﷺ، وقد أخذ الرَّوْع يُزايله، والسَّكينة تقترب منه.

"لقد خشيت على نفسى"

وتجيبه خديجة.

"كلا .. وأبشر .. فوالله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرَّحم، وتَصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقْرِى الضيف، وتُعين على نوائب الحق".

لم تعش "خديجة" التجربة التى عاشها الرسول فى الغار.. كانت بعيدة عن هذا الذى حدث فجأة، وانتهى فجأة.. فى لحظات، كأنها قرن من الزمان..!!

من أجل هذا، كانت فرصتها مُهيأة لكى تقول كلماتها هذه فى هدوء..

وجزاها الله خيرًا فقد كان موقفها ذاك جديرًا بمن اختارها القدر على عِلم لتكون قرينة هذا الرسول ﷺ ..!!

* * *

تُرى لو أن "محمدًا" ﷺ كان يطمح إلى مجد النبوة، ويعمل لبلوغ هذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلَّفة ـ أكانت حاله عند مجىء الوحى إليه ستأخذ هذا الطابع الذى رأينا..؟

كلا.. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهذا العطاء.

لكن "محمدًا" ﷺ كان يرجو الله ربَّه.. كان يريد الله ربَّه.

لم تكن فيه ذرة طموح لمجد دينى. أعنى لمجد يكتسبه باسم الدين.. بل كان كله طُموحًا لتكريس دينى.. كان كله شغفًا وهُيامًا بعبودية خالصة صادقة يطرحها فى تواضع وبكاء بين يدى ربه العلى الكبير.. وكان كله شغفًا وهُيامًا بأن يعرف الحق، ثم يهديه إلى البشرية الحائرة ويهديها إليه. ثم كانت مزاياه التى فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك.. فكان فضل الله عليه عظيمًا.

* * *

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو "خديجة" من ذهول المفاجأة رغم الكلمات الحانية التى ألهمتها حكمتها إياها، لتُسرِّى بها عن الرسول رهبة المشهد، وتخفف من وقعه وهيمنته.

لم يكن من طبائع الأشياء، ولا من طبائع البشر ألاَّ ينتقل إليها من الرهبة نصيب، مهما حاولت بهدوئها المتبدّى أن تكتم الرّهبة وتخفيها.

صحيح أن رهبتها لن تكون شيئًا مذكورًا بالنسبة لرهبة الرسول الذى عاش التجربة وعاناها.. بيد أنها رهبة تثير من الحيرة.. وحيرة تُثير من الرهبة ما يدخل الذكاء الإنسانى مهما تكن مقدرته فى أزمة تساؤل وقلق.

ولقد استطاعت "خديجة" العظيمة حقًا أن تلقى وجه المفاجأة بثبات كان نابعًا من شخصيتها الفريدة.. أما بقية المفاجأة، فقد كانت بحاجة إلى نجدة أخرى تُعطى لما حدث تفسيرًا، وتُضفى على الروع الذى لا يزال مأخوذًا، المزيد من السكينة واليقين.. وتمثلت لها هذه النجدة فى ابن عمها "ورقة بن نوفل" واحد من الذين استهجنوا عبادة الأوثان والأصنام.. وأضنى نفسه فى البحث عن الدين

الحق.. وحين أدركه الإعياء ألقى رحله على مرفأ من مرافئ النصرانية متمثلاً فى ذلك المذهب الذى كان يرى فى المسيح بشرًا، لا إلهًا..

وهكذا اقترحت "خديجة" على "الرسول" ﷺ: أن يذهبا إلى "ورقة" علَّهما يجدان عنده رأيًا وتفسيرًا..

كان "ورقة بن نوفل" على علم واسع بالتوراة والإنجيل.. وقد قضى شطر عمره فى البحث عن دين حق يعبد الله به. وخلال رحلاته وأسفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان والناسكين، ولطالما سمع نبوءةً تتردد بأن رسولاً يبعث إلى الحياة دين إبراهيم على وشك أن يُهلّ ويظهر. وذهبت بعض النبوءات إلى أبعد من هذا، فحددت مكان ظهوره ـ مكة وما حولها.

وعاش "ورقة" بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور، ويمنى نفسه بصحبة الرسول الذى أجمعت نبوءات العارفين على قرب مجيئه، لذلك وطَّن نفسه على الاستقرار بمكة فى انتظار الرسول.

وهكذا لم تكد "خديجة" تقدّم إليه نبأ زوجها عليه السلام، قائلة له:

"يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك" ـ حتى هاجته أشواقه العميقة، وأقبل على الرسول يصغى إليه فى انبهارٍ عظيم.

ولا يكاد الرسول ﷺ يُنهى حديثه حتى يتهلل "ورقة" ويفيض بشرًا ويعانق الرسول ﷺ ويقول له:

"هذا هو الناموس الذى أُنزل على موسى، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك".

ويسأله الرسول ﷺ: "أوَ مُخرِجىَّ هُمْ" ..؟

ويجيبه ورقة: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودى، وإن

يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا" .

بهذه الحفاوة، وبهذا اليقين تلقّى "ورقة" النبأ الحق الذى كان من قبل نُبوءة طال تطلعه إليها.

وإنه ليتمنى أن يدركه يوم البعث ليكون أول المؤمنين وأقوى النُّصراء.

لكنه سيموت وشيكًا، قبل أن يجىء يوم البعث العظيم.

وهكذا لم يُقدر له رغم فرحه الغامر أن يؤمن بالرسول وبالدين الجديد.

ذلك أن الدين الجديد لم يكن قد أعلن ميثاقه بعد.. والرسول ﷺ لم يؤمر أن يبشر بشىء، أو أن يتلقى بيعة.

إنه الآن يعيش فى يوم الوحى.. يوم ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. وبعد حين يجىء يوم البعث.. يوم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ.. قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ .

وبين اليومين زمن ليس بالقصير، سينقطع فيه الوحى لحكمة يعلمها الحكيم العليم.

وخلال هذه الفترة، ستكون روح الرسول ﷺ قد أُشرِبَت النور الجديد وتهيأت لاستقبال موكبه العظيم.

وخلالها أيضًا ستكون أشواقه الحميمة والعظيمة إلى الوحى قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه، وأعطت روحه مناعة هائلة ضد أى توجُّس أو تساؤل.

أجل. لقد تُرِكَ لأشواقه المحتدمة والعارمة تُشكل مُناخ علاقته بالوحى حين يعاوده ويجيئه، وتُنضج استعداده الأخير لصحبته..

وهكذا، رأيناه عليه السلام، ينطلق أمام ضغط أشواقه إلى الجبل، مقلبًا وجهه فى السماء، معتصرًا مآقيه بدموع الحب والرجاء، هاتفًا ضارعًا من أعماق صمته المدوى، علَّ روح القدس يَمُنّ عليه بِعَوْدٍ قريب.

لكن روح القدس لا يملك من أمره شيئًا.. وفيما بعد سيخبر الرسول ﷺ بهذه الحقيقة قائلاً له:

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

"سورة مريم: ٦٤"

وظلَّ يعاود قنن الجبال راجيًا أن يراه.

وعلى الرغم من احتدام أشواقه، وتوقد لهفته، وتوجُّسه الرهيب، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقَلاَه.. على الرغم من ذلك كله، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد الرغبة فى تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة ـ كما تزعُم بعض الأقاويل.

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحض هذه المقولة.

فليس محمد بشخصيته الراسخة وشمائله الشامخة من يصنع ذلك، أو يفكر فيه.

ثم إن الأشواق حين تتفجّر على النحو الذى عاناه الرسول، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء، لا القُنوط واليأس.

أما اختياره المرتفعات ليناجى فوقها نفسه، ويتحسس أمله، فلأنها دائمًا أصلح مواطن التأمل، والتماس السكينة، وتوُّقع الإلهام.

ألا ما أجلَّها من حكمة ـ تلك التى أرادت أن يفتُر الوحى عنه إلى حين..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة النور التى تلقتها فى أول لقاء مع جبريل.

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية وحشد طاقاتها لتقوى

على الصحبة الطويلة للوحى.. تلك الأيام ستدوم ثلاثة وعشرين عامًا كاملة.

وإلى جانب كونها تمكينًا لعلاقته المقبلة مع الوحى عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم.

وإلى جانب ما قد تومئ إليه من منحه حق الاختيار. إن شاء أن يتقدم حاملاً من أعباء الرسالة ما يطاق ومالا يطاق. وإن شاء فليتأخر، قبل أن يرتبط مع الوحى بعهد وميثاق..

نقول: إلى جانب هذا الذى يمكن أن نلتمس فيه بعض الحكمة فى انقطاع الوحى عن الرسول إلى حين.. فقد كان فى وُسعه خلال تلك الفترة أيضًا، أن يعيش فى نور الآيات الخمس التى لقنّه الوحى إياها فى الغار.

هذه الآيات التى تطل كلماتها المعدودة على موكب زاخر من المعانى والدلالات.

هذه الآيات التى لم تستهل حديثها معه عن القُرشِىّ، ولا عن العربى.. بل عن الإنسان:

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

"سورة العلق: ٥"

وكأنها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته.. فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لن يكون لقريش وحدها، ولا للعرب وحدهم، بل للناس كافة وللبشر أجمعين.

كذلك سيكون فى وسعه أن يروض نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس.. هذه الأمور الكبرى التى سيذكره القرآن بها كثيرًا فيما بعد قائلاً له:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

"سورة القلم: ٤٨"

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾

"سورة الإنسان: ٢٤"

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

"سورة الإسراء:٧٤"

أجل.. إن مع الرسول ﷺ الآن، وخلال فترة انقطاع الوحى عنه، أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد.

وكأنما أراد الوحى بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة فى ذروة تعبيراتها ومسلكها.

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونذروا حياتهم له سبحانه، قد يطيقون الصبر معه، أى مع ما يتوسلون به لمرضاته من عبادات بالليل والنهار.

وقد يطيقون الصبر فى سبيله، بما يحتملون من أذىً واضطهاد لكن الأمر الذى يجاوز طاقتهم حقًا، هو الصبر عنه..!!

ومن ثم لا نجد نبيًا ولا وليًا ولا قديسًا يزلزله فى أهوال الحياة كلها شىء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له، وحبه لله.

فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبى.. فكيف إذا عانى هذا

الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحى سَمِعه، وأحسَّه، ورآه..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه وحيًا وسفيرًا يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو فجأة ينقطع عنه دون أن يعطى وعدًا بلقاء ..؟؟

هنا الفرصة التى لا تتكرر؛ لكى تحلّ فى روح الرسول وشخصيته أقصى ما عرف البشر وما لم يعرفوا من قوى الصبر والاحتمال والتجريد.

فأما الصبر والاحتمال، فها هو ذا يرى فى لحظة من الزمان ـ الشمس ملء يمينه، والقمر ملء يساره.. ثم فجأة لا يراهما.. ولا يرى إلا فراغًا وحيرة.. وليس أمامه سوى الصبر حتى تعود الفرصة اليتيمة، إذا كان مقدرًا لها أن تعود. ولكى يصبر على مثل هذه التجربة ويحتملها، فإن عليه أن يُمارس نوعًا من الصبر لم تعرفه الدنيا من قبل..!!

وأما التجريد.. تجريد يقينه بربه من كل العلاقات، حتى تلك التى تكون مَثُوبَة لليقين وانعكاسًا له.. فها هو ذا يظفر بما لايخطر على قلب بشر من الناسكين والعابدين ـ وحى من الله يزوره ويُقرئه آياته، فيقول له: أنت رسول الله. وأنا جبريل.. ثم يمضى كأن لم يجئ، وكأن لم يكن، بل وينقطع وقتًا طويلاً دون بادرة عودة..

أهناك فرصة أجود من هذا وأبلغ ليجرّد الرسول ﷺ يقينه من كل علاقة ويحرره صورة مطلقة لرب العالمين، ولذات اليقين..؟؟

أجل، إن انقطاع الوحى يعنى هذا.. ولكأنه يقول للرسول ﷺ: ليأت الوحى، أو لايأتى..

ليذهب عنك إلى حين.. أو ليذهب عنك إلى الأبد.. ذاك أمر لله مَردُّه ومرجعه.. أما أنت فلتبقَ مكانك من العبادة والنُسك.. وليبقَ يقينك فى دائرة

تبتّله وتجرُّده.. ولتبق رُوحك حيث هى سابحة فى فَلك العبودية الخالصة..

وبكلمة واحدة.. ابق مكانك، ولا تُرد من الله سوى الله..!!

* * *

ولقد اجتاز الرسول ﷺ التجربة بنجاح عظيم، باذلاً أقصى ما يملك البشر من طاقة ـ مُعانيًا من مقاومة القلق، ومن دعم قُوى الاحتمال والصبر فى نفسه مالا يقدر عليه سوى أولى العزم من المرسلين..

وبعد حين سيجيئه الوحى فى صَلْصَلةِ فرحٍ عظيم، مستأنفًا معه الرحلة المباركة، تاليًا عليه قول ربه العلى الكبير:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

"سورة القلم:١ـ٤"

لقد نجح "محمد" ﷺ وفاز فوزًا عظيمًا.

نجح رسول الله ﷺ، وجاء الوحى يتوّجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج..

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذى أقامته السماء لصفيّها ورسولها، حيث يتلقى فيه بعد طولِ قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن: هأنذا معك من جديد ومعك دائمًا، يا صاحب الخُلق العظيم..؟؟!!

* * *

هنيئًا لك، أبا القاسم ما أُعطيت وأُولِيت..

وهنيئًا لأمتك بك.

والآن، فمع وحى الله وسفيره.. لن تُقلّب وجهك بعد اليوم باحثًا عنه.. فهو معك بإذن ربه، يتنزل على قلبك بالنور والفرقان.

فغدًا يتلو عليك..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ .. قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .. نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا .. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾

"سورة المزمل: ١-٤"

وبعد غد، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ .. قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

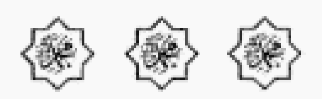
"سورة المدثر: ١-٢"

ثم تتوالى روحاته وغدواته. بين السماء والأرض.. بين الله ورسوله.

لسوف يصحبك ثلاثًا وعشرين سنة.

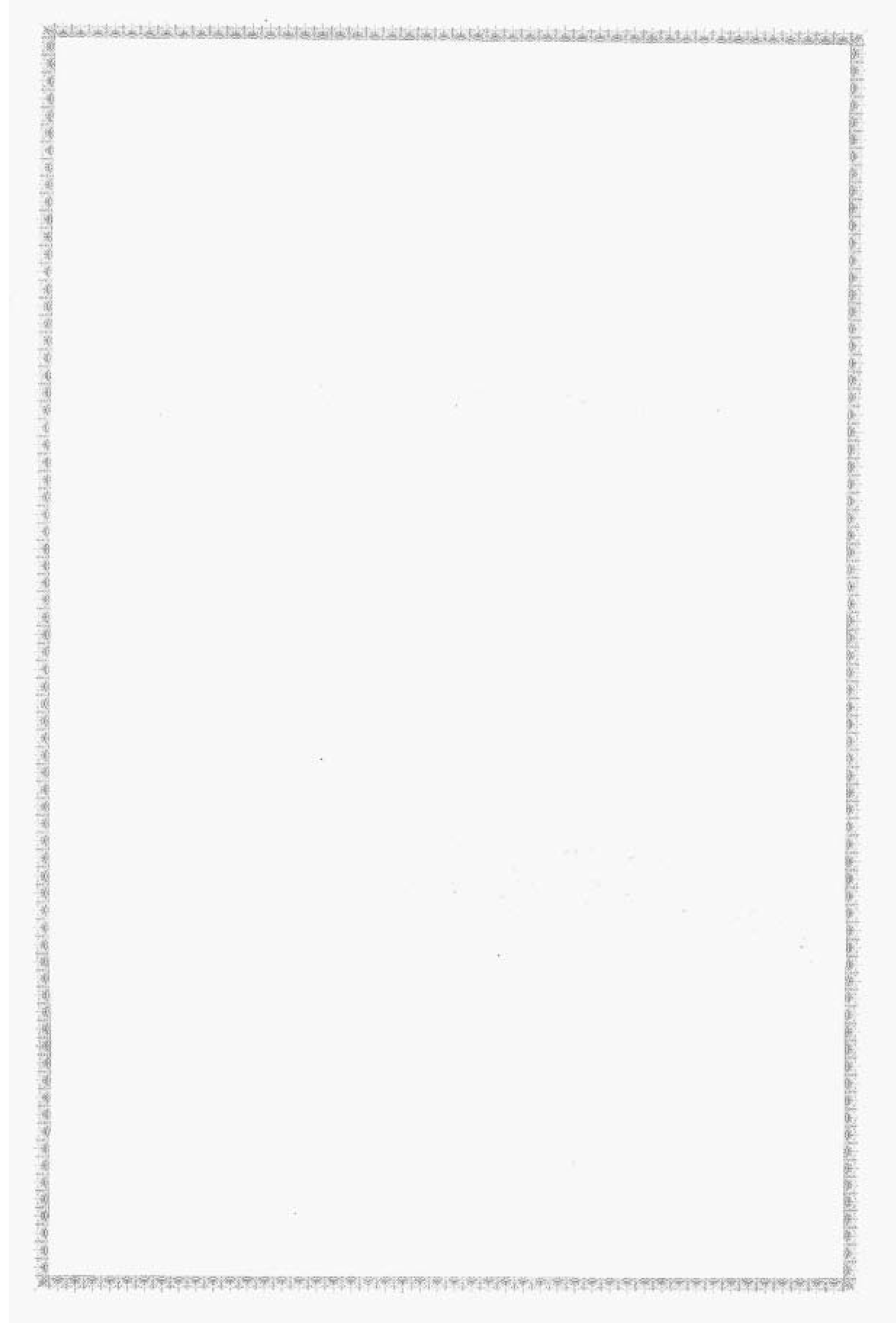
وسوف لا تفتقد أبدًا مدد ربك، ولا صُحبة خليلك.. وستَتمُّ النعمة لك.. وعليك يا أبا القاسم..

ولسوف يعطيك ربك فترضى..



الفصل السابع





كانت مأساة البشر عبر الحقب والقرون، أنهم كلما جاءهم رسول من أنفسهم يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون.. يحمل لسانهم، ويتحدث معهم وإليهم بلغتهم..

كانت مأساتهم أنهم يدينونه ما كان ينبغى أن يكون موضع الإجلال والتوقير، وداعى التصديق والتوثيق..

أجل ـ كانوا يدينون بشريته، ضانين بالرسالة على البشر وبنى الإنسان..!!

كان ذلك يعنى المراوغة والهروب من مواجهة الحق المبين.. كما كان يعنى جهلهم الأعمى بقيمة الإنسان..!!

هنالك استكثروا أن يصطفى الله من البشر رُسلاً وأنبياء، فقالوا ـ فى كل أحقابهم، ولكل رسلهم:

﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ..؟!

كأنهم لم يعرفوا، أو عرفوا ولم يصدقوا أن الله اصطفى آدم، ونوحًا، وآل إبراهيم، وآل عمران على العالمين.. وأنه سبحانه وتعالى آثر "آدم" عليه السلام، فجعله فى الأرض خليفة، رغم تطلع ملائكته المقربين لهذه المكانة الرفيعة.. وأنه ـ عز وجل ـ كرم أنبياءه وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا..!!

* * *

كل أمة قد خلا فيها نذير.. وكل أمة قالت لنذيرها ورسولها: "ما أنت إلا بشر مثلنا"..

وأى بأس..؟؟

أكانوا ينتظرون "ملكًا" رسولاً..؟؟

أليس الله أعلم حيث يجعل رسالته..؟؟

وإذا كانوا لم يطيقوا صحبة الرسول البشر، وهو واحد منهم.. فأنى لهم أن يطيقوا الرسول الملك.. وأنى للملك أن يصبر على صحبتهم، وعلى مكرهم، وما يأفكون..؟؟!!

كلهم قالوا: "أبشرٌ يهدوننا"..؟!

وكذلك قالت "قريش" لابنها الأمين.. ولقد حذرها الله سبحانه فى قرآنه العظيم، وحذر كافة المشركين والمكذبين الذين أخفوا أضغانهم وأحقادهم خلف هذا المنطق المُهلهل، والمقُولة الدّاحضة.. حذرهم أن يركبوا سنة الذين من قبلهم فقال جل جلاله:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

"سورة التغابن: ٥،٦"

تلك كانت مشكلة المكذبين بآيات الله ورُسله..

فقالوا:

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾

"سورة المؤمنون: ٣٣"

وقالوا:

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾

"سورة المؤمنون :٢٤"

وقالوا لرسلهم:

﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾

"سورة يس: ١٥"

وقالوا:

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

"سورة الشعراء: ١٨٦"

وقال بعضهم لبعض:

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

"سورة المؤمنون :٣٤"

وقالوا:

﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾

"سورة القمر: ٢٤"

* * *

بهذه التساؤلات الغبية، واجه قوم كل رسول رسولهم.. وبمثلها واجه مشركو مكة سيدنا "محمدًا" ﷺ رسول الله إليهم، وإلى العالمين..!!

ولقد كان المرسلون جميعًا ـ عليهم صلوات ربنا وسلامه ـ لا يكفون عن تقرير بشريتهم، وتوكيدها..

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

"سورة إبراهيم: ١١"

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

"سورة الكهف:١١٠"

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾

"سورة الإسراء:٩٣"

وكان الرسول "محمد" عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يؤكد هذه الحقيقة، ويُعنى بترسيخها فى قلوب الناس وعقولهم.

وعلى الرغم من أن خصومه من المشركين كانوا يركزون على هذه المقولة: ويجعلون منها ومن المعجزات المادية المحسوسة تحديًا مزعجًا.. إلا أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقى صامدًا مؤكدًا أنه رسول من البشر، وإلى البشر.. مُعلنًا ما أمره ربه أن يصدع به:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾

"سورة الإسراء: ٩٥"

لقد جهل المشركون أن الله ـ جل جلاله ـ لا يمتحن، ولا تناله اختبارات الناس وتفسيراتهم.. ومن ثم فهم باطلون ومبطلون حين يتطاولون بالقول، فيسألونه سبحانه: أن يريه مقدرته من خلال "محمد" إذا كان إلهًا حقًا قديرًا.. وأن يُريهم صدق "محمد" ﷺ من خلال قدرته وتوثيقه وتأييده لهذه النبوة

ولصاحبها..!! لم يستطيعوا أن يرتفعوا بتفكيرهم إلى المستوى الذى عنده يدركون أن معجزة "محمدٍ" ﷺ هى "محمدٌ" ذاته..!! وأن أروع آياته ومعجزاته، ماثل فى أن الله جعله هُدى ونورًا.. وأن القرآن العظيم بكل مقاييس العظمة، الصادق بكل مقاييس الصدق، هو المعجزة اللائقة بدين هو خاتم الأديان.. ومن ثم فهو باقٍ، وخالد، وعميم.. ولأنه كذلك، فإن توثيقه لا يعتمد على خوارق مادية، لا يراها إلاّ الذين يشهدونها فى بضع لحظات، ثم تنتهى وتُصبح مجرد ذكرى وأحاديث.

إنما يعتمد على "كتاب مُنير" لا ينصل بهاؤه.. يحمل إلى البشرية فى كل عصورها وأجيالها ما أودعه الله فيه من حكمة وهدى ونور..

* * *

لم يدرك الجاهليون فى عصر الوحى هذه الحقيقة الناصعة والساطعة.. ولا يزال كثيرون من خصوم الإسلام فى عصرنا هذا عاجزين عن إدراكها. أو هُم قادرون على إدراكها ورؤيتها وسماعها، لكنهم لا يستجيبون..!! طالب كفار مكة الرسول الأمين ببضع خوارق مُضحكة.. حملها القرآن الكريم إلينا، وإلى الأجيال..

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ

إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

"سورة الإسراء: ٩٠-٩٤"

ماذا وراء هذا المنطق المخبول.. إن كان منطقًا على الإطلاق..؟!

وراءه أناس، لا يريدون رسولا.. بل يطلبون "ساحرًا" يسترهبهم بسحره..!!

ويطلبون "إقطاعيًا" ضخمًا.. و "رأسماليًا" فخمًا، تكون له القصور المزخرفة، والحدائق الباذخة..!!

ويبتغون "إلها" يُسقط السماء كسفًا.. وينزل إليهم متحدثًا معهم، ومُصافحًا لهم.. وتجيء معه الملائكة قبيلا..!!

وتولى الله الجواب بما أنزله على قلب رسوله:

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

* * *

إن الصدق يحمى نفسه، ويؤكد نفوذه.. وهذه أوضح سماته، وأعظم ميزاته..

ومع الصِّدق، تجيء معجزة أخرى من المعجزات الأصيلة، والخليقة بالتقدير، متمثلة فى هذا القدر الباهر من الثبات والمثابرة.. ثبات الرسول ﷺ وثبات أصحابه العُزل والمستضعفين، كانت أولى مجابهاته ومواجهاته للخصومات اللجبة، والتحديات اللاهثة.. مفاجأة بالغة القسوة.. بيد أنها فى نفس الوقت كانت نعمة مُقنَّعة جاءت فى أوانها..!!

ذلك أنه بعد فترة من مبعثه، وحيث كان يُبشر بدعوته سرًا، جاءه الوحى الأمين حاملاً أمر الله لرسوله ﷺ بالجهر والعلانية:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

"سورة إبراهيم: ٩٤"

فنهض عليه السلام، آخذًا طريقه إلى تلة الصفا.. ومن عليائها راح يُنادى بصوت قوى جهير داعيًا العابرين إلى الإقبال عليه، والإصغاء لما يقول:

وكان قبل ذلك قد أرسل فى طلب زعماء قريش وشيوخها ليلتقوا به عند الصفا..

وهناك وقف يُلقى أولى كلماته الجهيرة المعلنة:

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم.. أكُنتم مُصدقىّ..؟؟

وأجابوه بملء خبرتهم بطهر حياته، وبصدق كلماته وبثقتهم الكاملة التى أضفاها عليهم سلوكه العظيم والنبيل، منذ كان يافعًا.. وحتى هذه اللحظة التى ينهض فيها خطيبًا..

أجابوه: نعم والله نصدقك، فما جربنا عليك كذبًا أبدا..

قال ﷺ:

"فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، وإنى رسول الله إليكم: أن تعبدوه وحده، ولا تُشركوا به شيئًا"

الله وحده.. ولا شريك له..

فأين إذن "هُبل، واللات، والعُزى"..؟!

كانت كلمات الرسول ﷺ العابرة القصار كوميض البرق وقعقعة الرعد..

أما الثلاثون الذين كانوا قد استجابوا لله وللرسول، وأسلموا فى مرحلة الخُفية والمساررة، فقد أضاءت وجوههم أنوار متألقة غامرة..

وأما الكافة من أهل مكة الذين يستمعون هذا النشيد السماوى لأول مرة، فقد راحوا يتبادلون الدهشة والنظرات.. وأما عِلية قريش وصفوتها، فقد بهتوا، ووجموا، والتقت نظراتهم الحائرة والخائرة عند وجه "أبى لهب" وكأنها تسأله:ـ

ما رأيك فى ما سمعت، يا عم محمد..؟!

وكان أبو لهب عند حسن ظنهم بحمقة، فصاح فى وجه ابن أخيه بعبارته المنكرة: تبًا لك.. ألهذا جمعتنا..؟!

وكانت مفاجأة قاسية.. فها هو ذا عم "محمد" عليه السلام، هو الذى يُسفه مُبادرته الكريمة، ويشجب دعوته العظيمة..!!

لم يأتِ هذا الشجب، ولا هذا الاستنكار من أحد آخر.. إنما جاء من عمه، وأقرب الناس إليه..!!

بيد أن هذا الموقف المشحون بالإحراج، وبالسوء، كان كما أسلفنا "نعمة" مُقنَّعة ومتنكرة فى سورة بلاء..

لكأنما أراد الله سبحانه، أن يضع هذا النذير أمام رسوله ﷺ.. لكأنه يقول له: أمامك زمن صعب، وجهاد عسير، فلا تعتمد على غيرنا، ولا تعقد الأمل على سوانا، ها هو ذا عمُك.. انظر كيف تحدّاك من دون الناس جميعًا، بدلا من أن ينصرك، ولو بالصمت المرْور.. امض لما نأمرك.. ودعنا نُرتِّب نحن أمورك.. وسترى أننا أولى بك منك..

ياله من درس حكيم وعظيم، جاء فى موعده وأوانه..!! ولقد حذق الرسول ﷺ الدرس واستوعبه تمامًا.. فها هو ذا بُعيد وفاة زوجته "خديجة" وعمه "أبى طالب"، وكانا أكثر الناس احترامًا له، وحرصًا عليه، وتفانيًا فى حبه ونُصرته، لا يُحاذر ولا يخشى.. ولا يتخفّف من عبئه، ولا يتئد فى خطوة، ولا

يجرى حسابًا مع نفسه ومع عواقب الأمور بعد أن رحل عنه نصيراه الأثيران والكبيران.. بل يحمل قلبه الجسور فى يمينه ـ بارك الله يمينه ـ مُوليًا وجهه شطر مدينة "الطائف" داعيًا أهلها الشرّسين إلى دين الحق، راجيًا أن يشكل منهم كتيبة من كتائب الدعوة، تشدُّ أزرها، وترد كيد عاديها..

لم يخف، ولم يجفل، ولم يصطحب معه أحدًا من أصحابه المؤمنين.. بل ذهب فردًا مُتفردًا.. لا يألو على شىء ولا يحسب للمفاجآت أىّ حساب..!!

وحين لقيه زعماء الطائف بصلفهم وبشراستهم إلى الحد الذى اغروا فيه سفهاءهم أن يسخروا منه ويحصبوه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، لم تهزه المفاجأة على الإطلاق..!!

ألم يتوقع النصرة فى مظانّها، يوم حديثه الأول إلى قريش على الصَّفا..؟؟ ثم جاءته المفاجأة الذاهلة حين أخلف الواقع ظنه، فإذا عمه "أبو لهب" يكون أول من يُلقى القُفاز فى وجهه..؟!

أنى يجيئه الخوف إذن من المفاجآت مهما يكن سُوءها وسوْآتها..؟؟

وأنى له انتظار النصر من غير رب النصر، الغالب على أمره.. المسيطر بقدرته وقدره..؟!!

لقد صار عليه الصلاة والسلام صديقًا للمجهول.. لا تستثيره المفاجآت مهما تتلفع بالغموض.. ولا تُرجفُه أو تُفزعه احتمالات العواقب مهما تحمله من جراح ورُضوض..!! أما أعداء الله وأعداؤه، والضّاغنون على دعوته.. والحاقدون على شرف رسالته، فقد ذهب الله بنورهم، وتركهم فى ظُلمات لا يبصرون..

* * *

كان ثبات سيدنا "محمد" ﷺ وكان إصراره ومُثابرته.. ثم من بعد ذلك كله أو معه، كانت تضحياته المتألقة، والمتفوقة، تصنع وتصوغ وتكتب تاريخًا جديدًا

لشرف الإنسان.. وشرف الإيمان..

ولقد يبلغ رجل ما من الرجال أعلى وأسمى آفاق الثبات والتضحية والمُثابرة نتيجة احتوائه على قُدرات عقلية ونفسية هائلة..

أمّا أن ينتقل نفس القدر من التضحية والمثابرة والثّبات إلى الآخرين الذين لا يمتلكون مثل قُدرات نفسه وعقله وروحه.. والذين لا يدفعهم من دوافع الدنيا وطموحاتها أى دافع.. والذين يرسلون خواطرهم نحو المجهول، فلا يجدون على جانبيه إلاّ أخطارًا مُحدقة.. وشدائد مبّرحة.. ومحنًا تزحم الطريق الطويل..!!

أقول: أمّا أن يحدث ذلك، فالأمر إذن أمر إعجاز فريد، بقدر ما هو مجيد..!!

أقول: أمّا أن يتصدّر صفوف المبكرين بالإسلام ثُلّة من صفوة قريش وحكمائها.. مُعرضين شرفهم الرفيع وجاههم العريض، وزعامتهم، ومكانتهم لإسفاف المشركين وسفالاتهم وكيدهم الأحمق، وأذاهُم المسعور.. دون أن يكون هناك مغانم ينتظرونها، وأمانىُّ يترقبون مجيئها، واثقين لا غير ـ بكلمة واحدة واعدة همس بها الرسول ﷺ فى آذانهم:

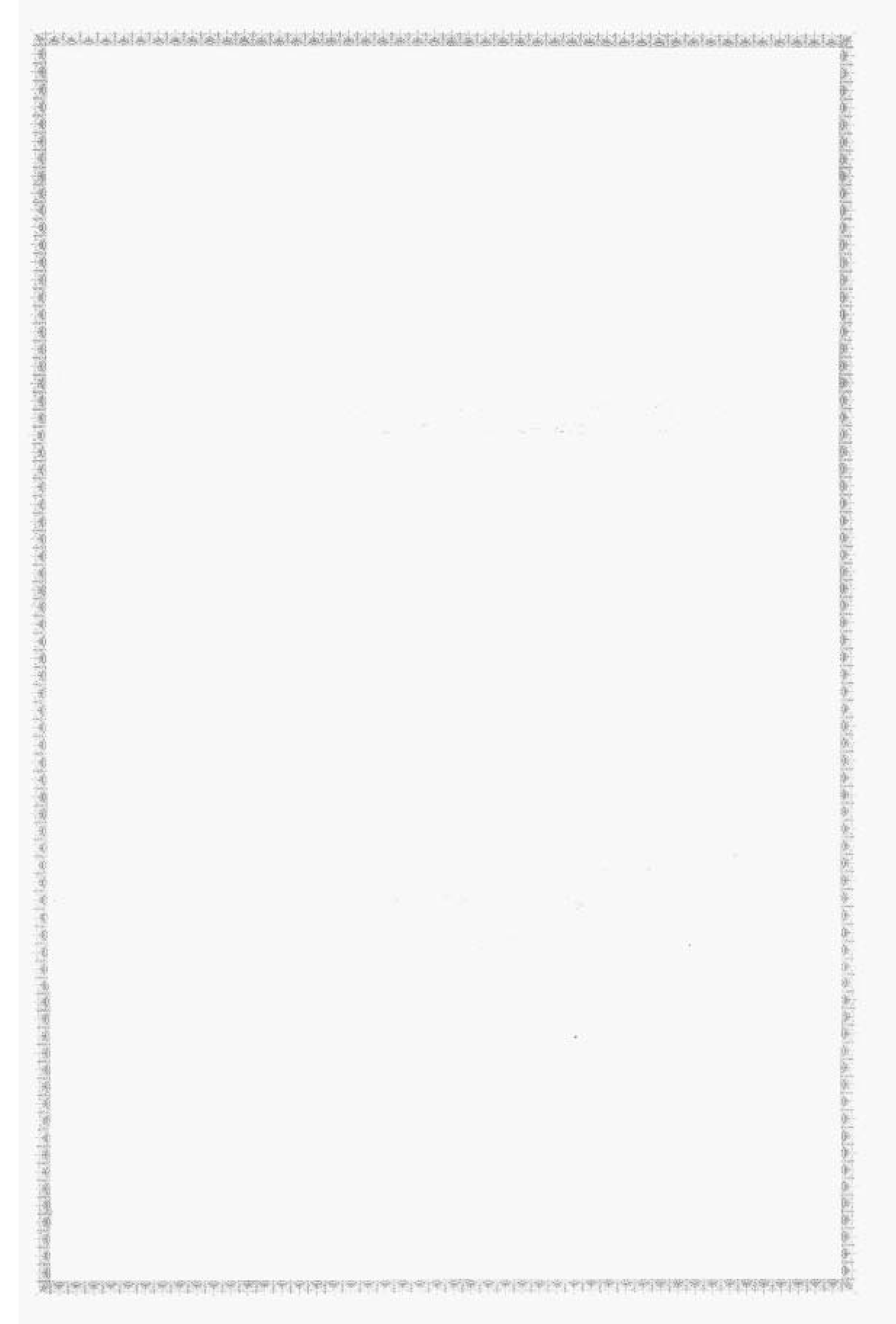
الجنَّة..!!

فهذا إعجاز آخر.. ولن يكون الأخير..!!



الفصل الثامن





ما دام الذى اختاره لرسالته وحمل كلمته هو الله رب العالمين.. الله الذى بيده مقاليد كل شىء، ويعلم السّر وأخفى.. ما دام ذلك كذلك، فما أظن أن لنا الحق ـ إن كنا بالله من المؤمنين ـ أن نلقى بهذا السؤال جَهرة، أو نطوى عليه الصدور..

فربنا العظيم وهو العليم الخبير أنبأنا حين قال جل جلاله:

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾

"سورة الأنعام: ١٢٤"

ولم يكن علم الله بمن يختاره لرسالته خاصًا بسيدنا محمد عليه السلام بل عامًا فى كل اختيار لكل المرسلين.. يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

"سورة الدخان: ٣٢"

فبعلمه الذى لا يعزُب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء..

وبمشيئته التى لا تُغلب، وبحكمته التى لا تغفو، ولا تتردد ـ اختار من عباده إبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا ويونس وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين، ثم ختمهم بمحمد ﷺ الرسول والنبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته، ثم قال لنا:

﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

"سورة الأعراف: ١٥٨"

ولأنه خاتم المرسلين، أخذ الله له البيعة منهم ومن أممهم جميعًا. وإنه ليقول:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

"سورة آل عمران: ٨١"

وهكذا يجيب الله كل من يسأل ـ وقبل أن يسأل ـ لماذا اختار "محمدًا" ﷺ ليحمل رسالته إلى الناس ـ جميع الناس مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا..

* * *

وحين يختار الله جل جلاله من عباده من يُعلّم، ويهدى، ويقود، رافعًا راية الحق والخير والطهر والحرية والعدل، فمن البداهة أن يُهيئه لهذا الدَّوْر بأعلى الخصائص وأسمى الأخلاق فى الوسائل والغايات.. ولا يستطيع من يعرف سيدنا محمدًا ﷺ أو من يريد أن يعرفه ألاَّ يقف طويلاً مع أعرف الناس به وأكثرهم صحبة له وأصدقهم لهجة إذا تحدث عنه.

ذلكم هو صاحبه وابن عمه وزوج كريمته الإمام "على بن أبى طالب" كرم الله وجهه، فلتصغ له وهو يتحدث عن الرسول ﷺ :

"كان دائم البشر، سهل الخُلق، لَيّن الجانب.. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولاَ عَيّاب أجود الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألْيَنُهم عريكة، وأكرمهم عشيرة.. من رآه بديهة هَابَه.. ومن خالطه معرفة حبّه.. يقول واصِفُه لم أر قبله ولا بَعده مثله.. لا يدفع السيئة بالسيئة. ولكن يعفو ويصفح.. وما رأيته

منتصرًا لنفسه من مظلمة ظُلِمَها قط إلا أن يُنتَهك من محارم الله شىء فَعندَئذٍ يكون أشد الناس غَضبًا.. وما خُيرّ بين أمرين إلا اختار أيسرهما.. كان يخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.. إذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غضّ طرفه.

وكان يتفقد أصحابه، ولا قصر عن الحق ولا يجاوزه.. أفضل الناس عنده أعمُهم نصيحة، وأعظمهم لديه منزلة أحسنهم مُواساة ومُؤازرة.. إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس، ويأمر بذلك.. لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه.. قد وسِعَ الناس بسطُه وخلُقه، فصار لهم أبًا وصاروا عنده فى الحق سواء.

قد طهَّر نفسه من ثلاث:

المِراء.. والكبر.. ومالا يعنيه.."

* * *

هذه بعض محامد "محمد" ﷺ وخِصاله..

وحسبه أن يُقسِم ربنا العظيم له ولنا فيخاطبه قائلاً:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

"سورة القلم: ٤"

هذا هو الذى نادى البشر بالأمس، ويناديهم اليوم، وغدًا وبعد غد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فإلام دعا؟؟ ولمن انطلقت أنوار شخصيته، وأضواء دعوته، وحنان رحمته؟

أجل ـ إلام ينادى "محمد" ﷺ اليوم، البشر المفدوحين بالجهالة، والقسوة، والضلال.. والمبشَّرين بسوء المصير والمآل..؟؟!

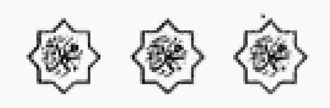
سنُبصر وتُبصرون.. ونسمع وتسمعون وسيكون الخير كله من حظ الذين

يبصرون ببصائرهم قبل أبصارهم ويسمعون بأفئدتهم قبل آذانهم..

ثم يُمجّدونَ الله ويحمدونه ويسألونه:

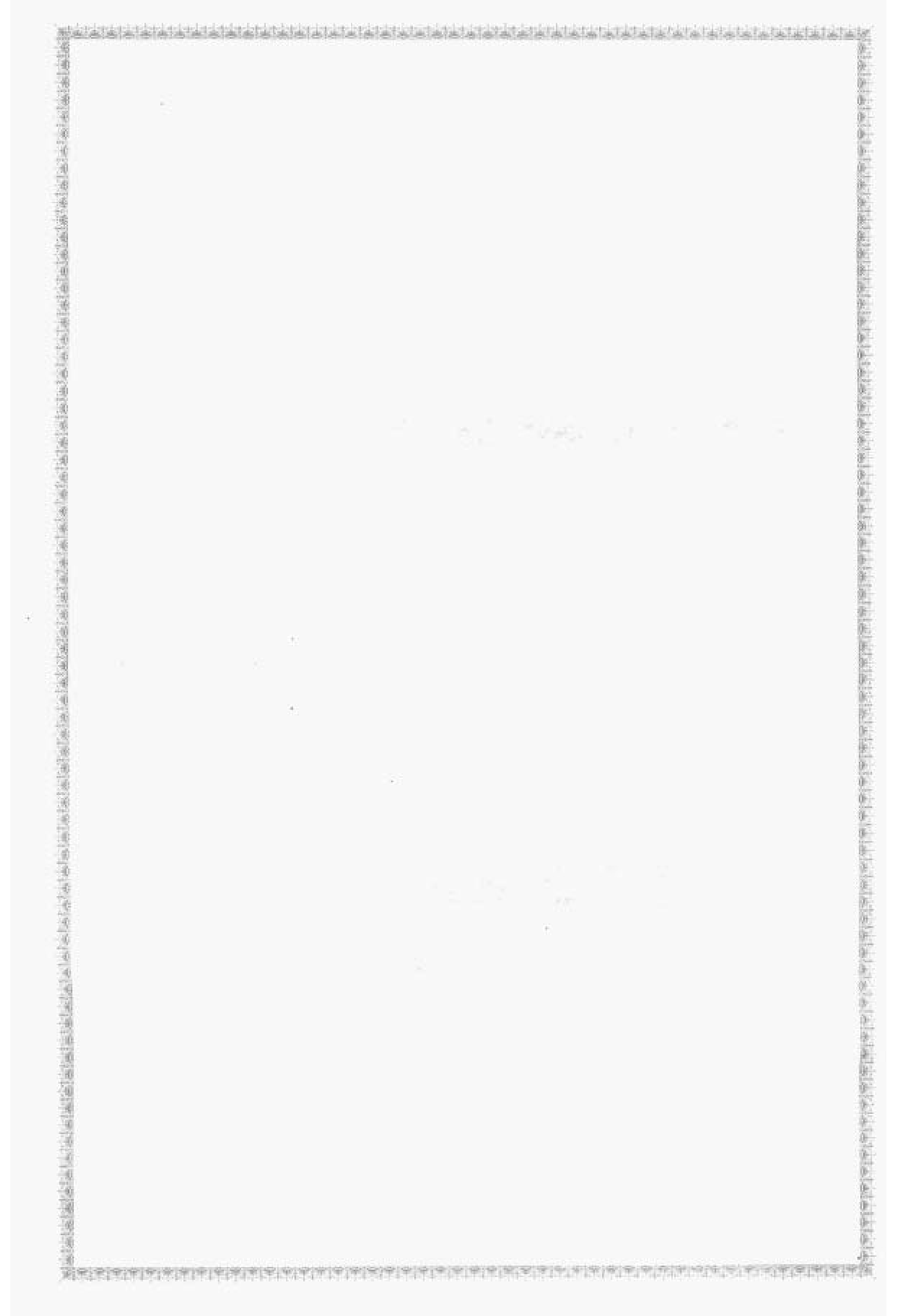
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

"سورة آل عمران: ٨"



الفصل التاسع





سعى إلى الرسول ﷺ يومًا واحدٌ من زعماء الجزيرة العربية هو "مفروق بن عمرو"، وواجَه الرسول ﷺ بهذا السؤال:

إلام تدعو، يا أخا قريش؟؟

أجابه الرسول ﷺ: أدعو إلى توحيد الله، وأنى رسوله.. قال مفروق: وَإلامَ أيضًا؟؟

فتلا ﷺ الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

"سورة النحل: ٩٠"

فقال مفروق: "هذا والله دين لا ينفر منه عاقل، ولا يغيب عن مشاهِده كريم"!!

إذن، فهذه دعوة الرسول ﷺ ومبادئ دينه وعقيدته:

- توحيد الله، وتوجيه أفئدة الناس جميعًا إلى أن إلههم واحد ـ رب السماوات والأرض، وما بينهما، ورب المشارق والمغارب..

- كما تتضمن الدعوة بعد الإيمان بالله الواحد الأحد ـ الإيمان برسالة "محمد" الذى اختاره الله ليبلِّغ عنه ويُبشِّر به، ويدعو إليه.. وماذا أيضًا مما تحتضنه

دعوته ورسالته؟؟

العدل.. والإحسان.. ورفض الفاحشة، والمنكر، والبغى.

وهذه فى التحليل النهائى لها، جُماع ما تتطلبه فى إلحاح وحتمية الحياة.. والإنسان، لكى يبقى للحياة ازدهارها، وللإنسان إنسانيته!!

ولقد فهمها "السائل" فقال قولته الذكية التى علَّق بها على إجابة الرسول.

وفى الفصول القادمة إن شاء الله تعالى سنلتقى بتفصيل ما أوجزه سيدنا مفروق فى بضع كلمات..

كان "مفروق" من سادات العرب.. وأمام إجابة الرسول عن سؤاله، ألْقَى السمع وهو شهيد.. معلنًا أن هذا الدين أصدق وأوثق وأجل من أن ينصرف عنه رجل رشيد..

وموقف "مفروق" هذا يصحح فكرنا عن أوائل المسلمين الذين سارعوا إلى الرسول ﷺ فى حب غامر وإيمان مكين..

ذلك أننا نقف عند نفر من الفقراء والعبيد الذين سارعوا إلى الإسلام مثل "بلال" و "خبَّاب" و "آل ياسر" ـ فنظن أنهم وحدهم كانوا أبطال المشهد الأول.. ناسين ذلك النفر من العِلْية الذين لم يكادوا يبصرون شفتى الرسول العظيم تنفرجان عن كلمات الله.. والقرآن.. والإسلام.. يَمَّمُوا مسرعين نحو الرحيق، والنور، والمستقبل الموعود.. فكان هناك "أبو بكر" و "عبد الرحمن بن عوف" و "سعد بن أبى وقاص" و "عمر بن الخطاب" و "عثمان بن عفان".. وكلهم، ومثلهم معهم، من سادات قريش ومن صفوة رجالها..

وهذا يدلنا على أن شخصية الرسول المقْنِعة. والأسرة ـ كانت شخصيته وسَطًا تمنح بالقِسط شرف الحق.. ونور الإيمان.. وتقوى الحياة.. ولا يكاد أحد

يلقاها بصدر ودود، وفهم رشيد حتى تنثال عليه بركاتها مالئة رُوعة بالإجلال وباليقين.

فى كتابى "إنسانيات محمد": أهديت الكتاب إلى سيدنا الرسول ﷺ فى هذه الكلمات:

- يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ يا من قدَّست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان..

- يا من زكَّيت سيادة العقل، ونَهْنَهْتَ غريزة القطيع..

- يا من هيأك تفوقك لتكون سيدًا "فوق" الجميع، فعشت واحدًا "بين" الجميع..

- يا من أعطيت القدوة، وضربت المثل، وعَبَّدت الطريق..

- يا أيها الرسول، والأب، والأخ، والصديق..

إليك أهدى هذه الصفحات فى حياء من يعلم أنه يجاوز قدره بهذا الإهداء..

والآن، فإن الصورة التى رسَمتْها كلمات الإهداء لم تتغير، ولم ينصل بهاؤها.. بل ازدادت ألَقًا وصدقًا ومجدًا.

فهذا ـ حقًا ـ هو الإنسان الكامل الذى قدمه الله لعباده.. والذى ينادى الإسلام البشَر إليه، ليطالعوا عظمته.. ويقرأوا رسالته.. ويفهموا حقيقته، فإذا هم به من المؤمنين وله من التابعين..

وعلى الرغم من أنه عابد زاهد أوَّاب فقد كان لُباب رسالته إزهاء الحياة، وإنهاض الإنسان.

إنه يريد للحياة إعمارًا لا يُؤذِن بانتهاء.. ولا يصرف عنه انفطار السماء، ولا انتثار الكواكب، ولا تفجُّر البحار وبعثرة القبور، ولا كل مظاهر البعث والقيامة والنشور!!

ولْنُصغ لقوله ﷺ :

"إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فَسِيلَة، فليغرسها"

لو جمعنا كل ما قاله الفلاسفة والعلماء والحكماء فى دعم الحياة واحترام حقها فى الاستمرار والتقدم والإعمار، ما بلغ معشار ما تُفيئه كلمات الرسول هذه:

"إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فَسِيلَة، فليغرسها"!!

إن الفسيلة من صغار النخل التى تُغرس فى الأرض لتنمو فيما بعد نخلة باسقة لها طَلْع نَضيد.. فأى نفع وأية جدوى من غرسها إذا كان يوم البعث قد أطلَّ بأهواله وقام الناس لرب العالمين؟؟!

إنه الالتزام المقدس تجاه العمل والحياة، يحرص الرسول ﷺ على قيام المسلم به حتى والدنيا تلفظ آخر أنفاسها..!!

* * *

ولا يقل نهوضه بالإنسان عن إبقائه على الحياة فالإنسان مُصطفى الله لخلافته فى الأرض، وموضع إكرامه وتكريمه.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

"سورة الإسراء:٧٠"

والعمل فى سبيل نهوضه ورفعته وتقدمه الروحى والمادى، ودعم حقه فى الحرية والعدالة ـ هو لُباب رسالة كل نبى وكل رسول.

ولما كان الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء وآخر المرسلين فقد كان اهتمامه وكانت همومه بالإنسان أكثر أعباءً وأثقل حملا من كل أحمال وأثقال إخوانه الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين، وبروحه النضير وعزمِه القدير، حوّل هذه الأعباء والأثقال إلى فيض لا يغيض من الحنان والرحمة والحب.

يسمع أصحابه يلعنون واحدًا من المسلمين شرب الخمر بعد تحريمها. فيزجرهم الرسول ﷺ وينهاهم قائلاً:

"لا تلعونه، فإنه يحب الله ورسوله"!!

ولم لا يفعل، وقد قال الله عنه:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

"سورة القلم: ٤"

وقال فيه:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

"سورة التوبة: ١٢٨"

وإنه ليقول:

"بينما بَغِىٌّ تسير إذ رأت كلبًا يلهث من العطش، فخلعت مُوقَها وأدْلته فى بئر حتى مُلئ ماء، فسقته، فشكر الله لها، وغفر لها، وأدخلها الجنة"!!!

ليس شرطًا أن تكون هذه الكلمات اليانعات تصويرًا لحادث حدث وواقعة وقعت.. وحسبُها أن تكون مثلاً رامزًا لرحمة ربنا وحنانه وهِباته كما يفهمها الرسول ﷺ، وكما يُدرك أبعادها الجليلة التى تطالُ كل أعراض الضعف الإنسانى وما ينتجه من ذنوب وخطايا وأوزار!!

فالبَغِىّ المتقلبة بين أحضان المنكر والفاحشة يستوقفها ظمأ كلب يلهث، ويتندّى قلبها الكسير بعاطفة حانية، فتشق مُرطها نصفين وتربط به مُوقَها أى نعلها ثم تلقيه فى غَيَابةِ البئر، حتى إذا امتلأ ماء جذبته فى رفق.. واللاَّهث الظمآن لابث يترقب ويهز ذيله فى سرور ودهشة.. وأخيرًا تُدنِى البغى الماء فى فمه المرتجف، فيشرب عللاً بعد نهْل.. حتى إذا رَوِى أقبل عليها يمسح كفَّها وذراعها بلسانه تعبيرًا عن شكره وعرفانه.

ويفترض الرسول الكريم ﷺ أن الله يرقب المشهد من هناك من فوق سماواته وعرشه المجيد.. ويسألنا: ما تظنون أن الله صانع بهذا البغى؟؟

لقد شكر لها.. وغفر لها.. وأدخلها الجنة..!!

* * *

ألا صدق ربنا العظيم حين قال لرسوله ﷺ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

"سورة الأنبياء: ١٠٧"

وصدق الرسول ﷺ حين قال عن نفسه:

"إنما أنا رحمة مُهداة.."

تصوروا رسولاً جاء ليغير العالم يُعنَى فى نُبل عظيم بالحيوان فى لحظات ذبحه، فيقول:

"إذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة. وليُحِدّ أحدكم شفرته.. وليُرِح ذبيحته"!!

وإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليمر برجل يُوثِق ذبيحته بالحبال والسكين فى يده ترمقها الذبيحة بنظرات حزينة متفجعة، فينأى الرسول بوجهه وبصره، ويأمر الرجل أن يُوارىَ شفرته ويرحم الذبيحة من أن تشقى برؤيتها مهدِّدة متوِّعدة..!!

* * *

والآن، فلنرسل البصر متجهمًا وناقمًا إلى التنِّين الروسى الذى يقترف فى "الشيشان" ومع شعبها المسلم كل أنواع الإفك والقتل والحرق والإجرام..

ولنرسل البصر إلى البوسنة والهرسك حيث يدمر الصرب الملاعين كل شىء هناك ـ الإنسان، والحيوان، والدور، والمساجد، والمدن، والقرى..

وحيث يُجهزون فى وجبة واحدة على ثلاثة آلاف مسلم حرقًا بالنار!!

ولم يكفهم هذا، فراحوا يفعلون ما يَخجل الشيطان من فعله، فَيحْقِنُونَ أرحام المسلمات العفيفات المحصنات بنُطف الكلاب!!

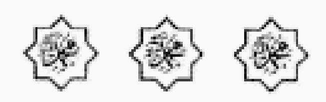
ويزعمون ومن وراءهم من المجرمين الكبار أنهم للسيد المسيح أتباع وأشياع..

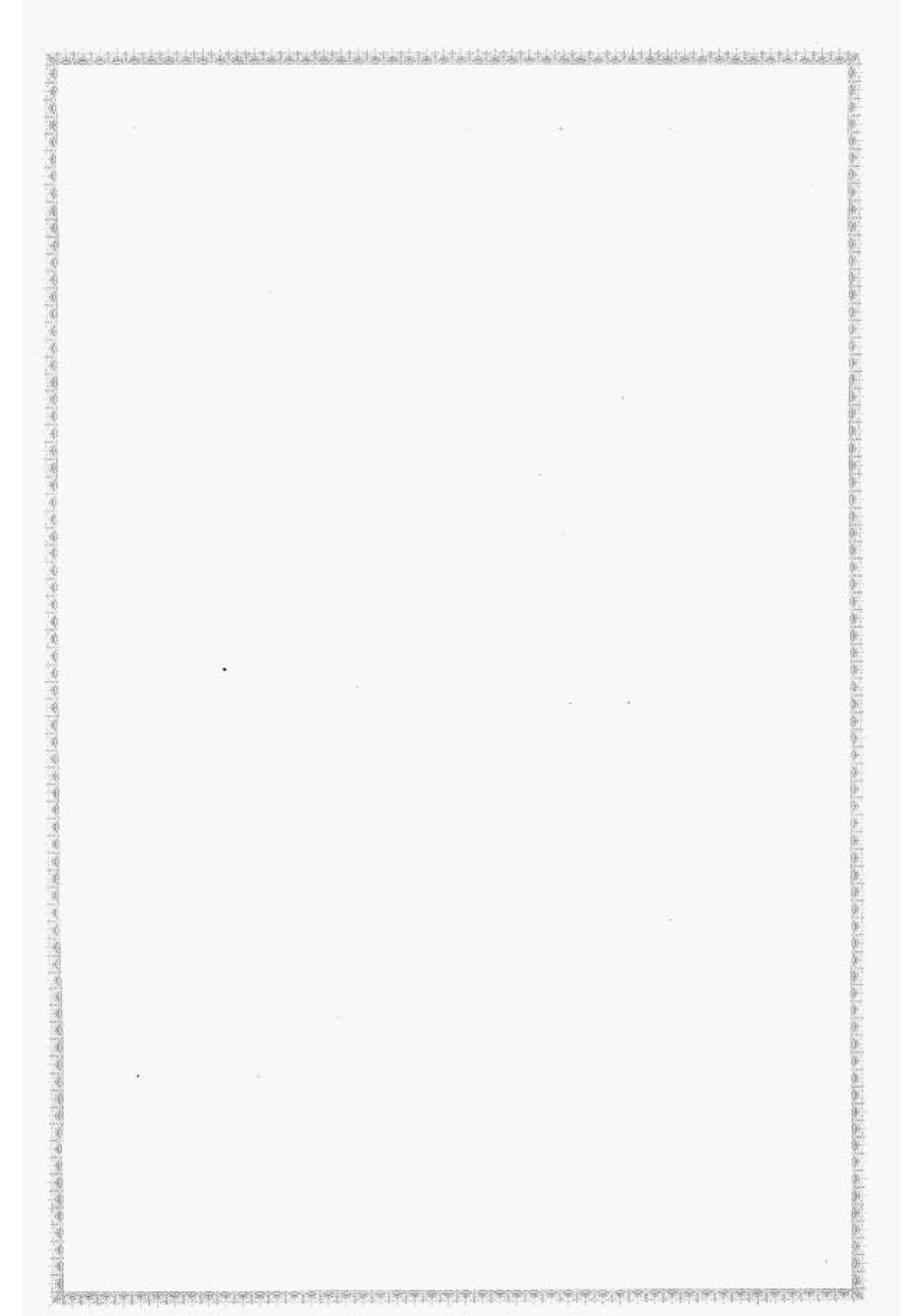
والسيد المسيح يبصق عليهم ويعلنهم ويُناديهم:

"يا أولاد الأفاعى.."

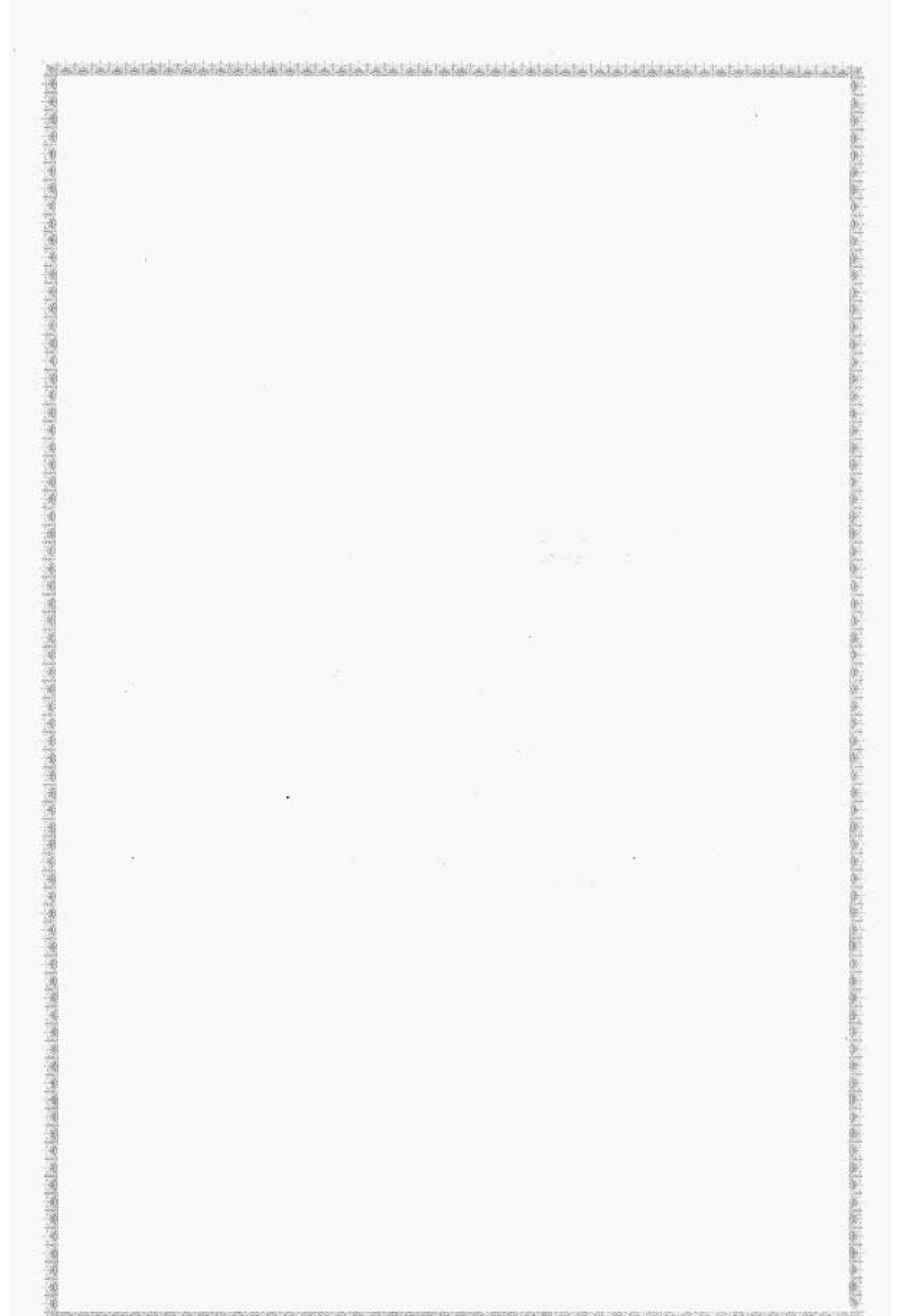
"كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فَجرة"؟؟!!

إننا إذ نتحدث عن رحمة الرسول ﷺ وتكريمه الإنسان فلا حق لنا فى أن نقحم على الحديث أدنى ذكر لأولاد الأفاعى.. القتلة والآبقين، الذين يزكم نتنهم الأنوف..





فهرس



كتب المؤلف

١ـ من هنا نبدأ
٢ـ مواطنون .. لا رعايا
٣ ـ الديمقراطية، أبدا
٤ـ الدين للشعب
٥ـ هذا.. أو الطوفان
٦ـ لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ـ لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨ـ معا على الطريق محمد والمسيح
٩ـ إنه الإنسان
١٠ـ أفكار فى القمة
١١ـ نحن البشر
١٢ـ إنسانيات محمد
١٣ـ الوصايا العشر
١٤ـ بين يدى عمر
١٥ـ فى البدء كان الكلمة
١٦ـ كما تحدث القرآن
١٧ـ وجاء أبو بكر
١٨ـ مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ـ كما تحدث الرسول(مجلد)
٢٠ـ أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ـ رجال حول الرسول(مجلد)
٢٢ـ فى رحاب على
٢٣ـ وداعا عثمان
٢٤ـ أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ـ معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ـ عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ـ .. والموعد الله
٢٨ـ خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩ـ الدولة فى الإسلام
٣٠ـ دفاع عن الديمقراطية
٣١ـ قصتى مع الحياة
٣٢ـ لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣ـ الإسلام ينادى البشر
٣٤ـ إلى كلمة سواء
٣٥ـ قصتى مع التصوف